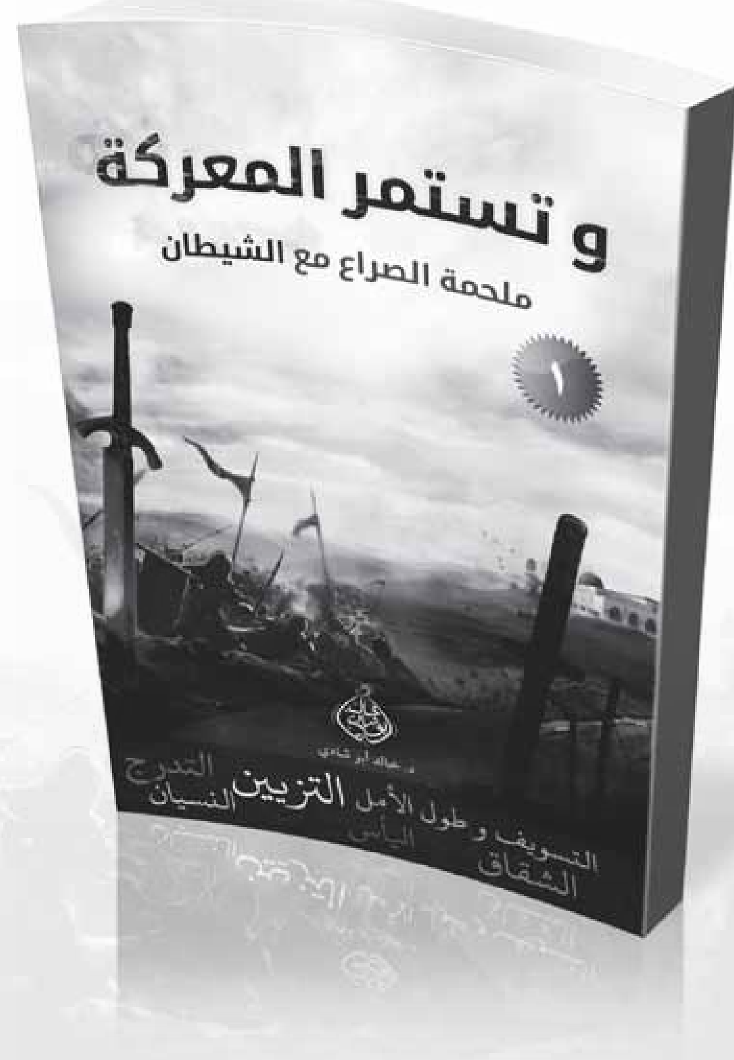

و تستمر المعركة
ملحمة الصراع مع الشيطان
١
التدرج
التزيين
النسيان
التسويف و طول الأمل
اليأس
الشقاق

٢٠١٥



الكــــــــتاب :	وتستمر المعركة
الكـــــــاتب :	د / خالد أبو شادي
عدد الصفحات :	192 صفحة
عدد الألـــــوان :	2 لون
رقـــــم الإيداع :	2014 / 19313
الترقيم الدولي :	978/977/426/155/6

توزيع



تليفون وفاكس

002 02 / 33026637 - 33446727 - 33465252

E-mail:rayatop@hotmail.com
Www.daralraya.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد :

فإن حالة الفتور التي تصيب القلب هي سنة من سنن الفطرة البشرية، فلا تستطيع أن تظل في نفس درجة حماستك التي بدأت بها الانطلاق، وتتعرض لتذبذب من حين لآخر، ودائما ما يستهدف الشيطان ويتربص بالعبد يستهدفه عند هذه اللحظات، فيكيل له الضربات.

ودراسة مكائد الشيطان والتعرض لحيله والتعمق في معرفة طرقه هو أفضل سبيل لتفادي الضربات القاتلة التي يستهدف بها الشيطان إيمان العبد.

وتجسيد هذه العداوة عبر هذا الكتاب يحوِّلها من عالم الغيب قريبا إلى عالم الشهادة، فيحتدم الصراع بين العبد والشيطان، وتظل روح الثأر تسري في قلب المؤمن ما طلع الليل والنهار.



معركتنا مع الشيطان كرٌّ وفرٌّ ..

قد تخسر فيها جولة ..

لكن النصر حليف من عرف قواعد الصراع، فطلّق اليأس، ولم يترك المحاولة.

ولاشك أن الشيطان قد تقدَّم كثيرا في هذا الزمان، فاستزل قوما حتى عبدوه، وأغرى آخرين حتى زاغوا عن الطريق وأعانوه، وألقى بالشبهات في قلوب البعض فألحدوا وكفروا..

وصار اليوم من فروض الأعيان معرفة ودراسة الشيطان لمقاومته ومهاجمته، ثم الانتصار عليه..

عتابٌ شافي!

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]

خطابٌ يسلب العقول والأرواح ..

حلاوة وجلالا ..

حياءً وامتنانا ..

يقول الله جلَّ في علاه:

أنا الذي أمرت إبليس بالسجود لأبيكم ..

فلما أبى طردتُه من رحمتي ..

وأبعدتُه عن جنتي ..

وعاديته أبد الدهر ..

وكل هذا من أجلكم ..

ثم حذَّرتكم منه غاية التحذير..

يشهد لهذا آيات كتابي الذي أَنْزَلت ..

وأحاديث رسولي الذي أرسلت..

ما من سلاح شَهَره في وجوهكم إلا أخبرتكم كيف تقاومونه بل وبه تحاربونه!

ما من حصن تحتمون به وتلجأون إليه عند احتدام القتال إلا دللتكم عليه..

ثم أنتم بعد هذا كله تقعون في شراكه ..

وتسيرون في ركابه ..

وتصيرون من جنده!

توالونه من دوني وأنا ربكم!!

الذي أوجدتكم من العدم ..

ورفعتكم فوق سائر الأمم!

تعقدون بينكم وبينه عقد المصالحة وتخاصموني!

تطاوعون أمره وتخالفوني!

لو لم يكن الشيطان إلا عدوا لربكم الذي ليس لكم سواه ..

لكان من الواجب عليكم أن تعادوه .

فكيف إذا جمع مع هذا استكباره على أبيكم ..

وكيده له حتى أخرجه من نعيم الجنة!

وكيف إذا جاءت الثالثة؟!

بأن كان همُّه الأوحد أن يُدخِلَكم النار!!

كيف توالون من جمع هذه العداوات الثلاثة؟!

ما هذا الاستبدال؟!

كيف ترضون بهذا الحال؟!

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب،

وأن يقوي به جند الإيمان في قلوبكم،

فتنتصرون وتسعدون بالنصر وتهنؤون.



د. خالد أبو شادي



الفصل الأول

أهداف الكتاب





الفصل الأول



أهداف الكتاب!

هذا الكتاب

معركة، فصرير الأقلام فيه كصليل الحسام، كلاهما يذبح الشيطان.

وبدون هدف واضح ترجع من هذا الكتاب بخُفَّي حُنين، وتدور في حلقة مفرغة من القراءة الخاوية من أي نفع أو فائدة، والهدف الذي من أجله كتُبَ هذا الكتاب:

✦ تذكيرك بالعداوة القديمة بينك وبين عدو الله إبليس، في محاولة حثيثة للتقريب بين عالمي الغيب والشهادة، بتجسيد هذه العداوة في إطار حسي مادي، مما يجعل اليقظة لها أشد والاستعداد أتم.

✦ تجهيزك لعمليات الثأر المقدس من عدوك الذي غلبك في جولة من جولات معركةٍ طويلة لم تضع أوزارها بعد.

✦ تعميق جذور هذه العداوة في قلبك، وإذكاء نارها يوما بعد يوم، لأن من اشتد حنقه على عدوِّه جدَّ في طلب الثأر منه، وكاد له كيدا عظيما.

✦ الدراسة العميقة لألد أعدائك وأخطرهم، والذي أخرج أبويك من الجنة، ولم يكتف بذلك، حتى تربص بذريتهما، وأقسم ألا يفلت أحد منهم من يديه، وللأسف صدق في وعيده! ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠].

وانظر حولك، وفتِّش عن كل شر على وجه الأرض:

هل تجد وراءه إلا الشيطان؟!

يكيدنا بنفسه أو عن طريق جنده وحزبه.

إنسا كانوا أو جنا ...

- رفع مستوى الحذر والانتباه لكيد العدو إلى أقصى درجاتها.
- تأصيل هذه العداوة وربطها بالدين؛ لأن عداوة الدين أشد من عداوة الدنيا، ذلك أنَّ انتصارك في هذه المعركة يعني خلودك في جنَّات النَّعِيم، أمَّا الهزيمة فتهوي بك في قعر جهنم.

إذا جاء النص بطل القياس، والنص هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، وإبليس هو الرأس وقائد الشرك ومخترعه!

مدُّ طوق النجاة إلى الغارقين في بحار اليأس والاستسلام، بعد أن ظنوا أن كيد الشيطان أقوي وقوته أغلب، وأن السقوط في شباكه حتم لا فكاك منه.

هذا عن الموجز، فأما التفصيل فهو كما يلي:

١. حتى لا تتحول العداوة إلى صداقة:

كل من أطاع الشيطان اليوم في معصية الله فقد اتخذه وليا. قال الله تعالى في سورة مريم في قصة دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾ [(١)].

قال **القرطبي** في التفسير:

---

(١) مريم : آية (٤٤ ـ٤٥) . قال ابن عجيبة في لطف إبراهيم في دعوته:
فهذه موعظة الخليل لأبيه ، وقد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه :
الأول : ندائه : بيا أبت ، ولم يقل يا آزر ، أو يا أبي .
الثاني : قوله { مَا لَا يَسْمَعُ.. } إلخ ، ولم يقل : لِمَ تعبد الخشب والحجر .
الثالث : قوله : { إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ} ، ولم يقل له : إنك جاهل ضال .
الرابع : قوله : { إني أخاف } ، حيث عبَّر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب .
الخامس : في قوله : { أن يمسك } ، حيث عبَّر بالمسِ ولم يُعبر باللحوق أو النزول .

«قرينا في النار»[٢].

فلا يكون له في النار مولى ولا نصير ولا معين ولا أنيس، غير إبليس، وبئس الرفيق الذي تولاه ..

هل أغاث نفسه حتى يغيث من حوله؟!

لكن **السعدي** ربط النتائج في هذه الآية بالمقدمات، فقال تفسيره مبيِّنا حدود الولاية الزمنية وآفاقها البعيدة:

(في الدنيا والآخرة) [٣].

هما ولاءان إذن:

ولاء في الدنيا تنزل به منازله الذميمة، وترتع في أماكن تواجده وإفساده..

يقابله، ولابد:

ولاء في الآخرة تقترن به معه في قيد واحد، تصلى به معه النار.

وحين يتحول العدو إلى صديق يقع الإنسان في المهالك، واحدة تلو أخرى دون أن يشعر، وينتحر وهو يحس أنه يُحسن صنعا .. ويحرق نفسه بالنار ظانًا أنه من النعيم يغترف .. ويقع في مكائدكثيرة أهداها له عدوه على هيئة نصائح.

والعاقل اليوم لا يقبل نصيحة عدوه، ولا يسترشد برأيه فضلا عن أن يواليه أو يصاحبه، هذا من البدهيات، فكيف والله ينادينا في كتابه:

(٢) تفسير القرطبي ١١/١١١ ط دار الكتب المصرية.
(٣) تفسير السعدي ص : ٤٩٤.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

ولذا جاءت الأوامر النبوية بمخالفة الشيطان، لتغرس في النفس العداوة العملية في سلوكك اليومي، فعلى سبيل المثال:

الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، لذا وجبت علينا مخالفته بالتيامن.

ونهى النبي ﷺ عن المشي في نعل واحدة وقيل لأنها مشية الشيطان.

ورغَّبنا في القيلولة، معلِّلًا ذلك بقوله ﷺ:

«قِيلوا فإنَّ الشياطين لا تقِيل» (٤).

ومن أطاع الشيطان فهو موالٍ له، وإن ذكر الله بلسانه وسبَّحه في ليله ونهاره، فكم من ذاكر بلسانه جاحدٍ بقلبه وأركانه.

ثم يأتي من بعد الصداقة:

السقوط في بئر العمالة!!

فيتحوَّل الضحية إلى جندي، يعمل في جيش إبليس: يساعده في إغوائه، ويتولى عنه بعض مهام إفساده!! ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وحين تطول فترة الموالاة تنقلب الصفات الفطرية إلى شيطانية، وحين تتوارى الجوانب الإنسانية وتضمحل تنتفي صفة الإنسانية عن بعض البشر ويتشيطنون!!

(٤) حسن: رواه الطبراني وأبو نعيم عن أنس كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٦٤٧.

فيا شياطين الإنس!

حتى متى إيثار صحبة إبليس بإيثار الخسيس، والرضا في الطاعات بالتدليس؟!

لذا فإن الله هو الذي سماهم شياطين في كتابه حين قال:

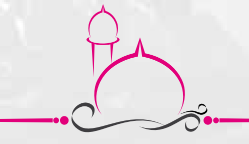
﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

قال ابن مسعود:

﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ ﴾: رؤساؤهم في الكفر [٥].

فالمرء بقلبه، فمن ملك قلب شيطان انتسب إلى الشياطين وإن تسمى بأسماء الأنبياء.
ويشهد لهذا قول رسول الله ﷺ في الصحيح:

«يكون بعدي أَئِمَّةٌ لا يهتدون بِهُداي ولا يستَنُّونَ بِسُنتي، وسيقوم فيهم رِجالٌ قلوبهم قلوب الشَّياطين في جُثمانِ إِنْسٍ»[٦].



(٥) فتح القدير ٤٠/١.
(٦) متفق عليه كما في مشكاة المصابيحرقم: ٥٣٨٢.



يا جند الشيطان!!

لمح هذا ابن القيم فقال:

«فكل راكب وماشٍ في معصية الله فهو من جند إبليس»[٧] .

أخي العاصي .. ولعله أنا وأنت .. !!

حين تعمل لحساب عدوٍ كان المنتظر منك أن تحاربه..

حين تسقط في بئر الخيانة بتعاونك مع العدو اللدود لربك ونبيك..

فماذا تتوقع أن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؟!

ألا ويح من آزر شيطانه على ربه ..

ألا ويل من وقف في صف عدوه، ضد وليه وسبب إيجاده ونعمته..

وليته مع كل هذا شعر بفداحة مصابه وهول مقامه بل إحساس مقتول ومشاعر باردة.

٢. ذبح اليأس:

وهو بمثابة مد يد المساعدة لانتشالك من بئر اليأس، لأن انتقال القلب إلى ضفة اليأس هو غاية مراد الشيطان وأسمى أمانيه، ولاشك أن الهزيمة تأخذ طريقها على الأرض فور بدء تسرب اليأس إلى القلب، وهذا ما ينتزع به الشيطان مخالبك ويفرِّغك به من مظاهر قوتك، واليأس كما قال المناويّ: **(القطع بأنّ الشّيء لا يكون، وهو ضدّ الرّجاء)**[٨]، وفضح حقيقته العزّ حين قال:

(٧) مدارج السالكين ١/١٣٧.

(٨) التوقيف ص: ٣٤٦.



(هو استصغار لسعة رحمته- عز وجل- ومغفرته، وذلك ذنب عظيم وتضييق لفضاء جوده)[٩].

لذا كان الأمل مبثوثًا مسكوبًا في حروف الفقهاء؛ يقتل اليأس من رحمة الله، ويعدُّه من الكبائر. قال أحمد بن عاصم الأنطاكي:

(هذه غنيمة باردة: أصلِح ما بقي من عمرك، يُغفَر لك ما مضى)[١٠].

أخي .. كل لحظة باقية في معركة الحياة هي باقة أمل في تحويل الهزيمة إلى نصر، ودحر عدوٍّ طال بغيه وزاد عُتُوّه، واحتل دولة القلب، وإن طال به الزمن.

٣. استنفار قوى الإنسان في مواجهة العدو:

تذكر أنك في قتال يستنفر قواك ويستحثها للمواجهة الشاملة مع العدو الأخطر، لكن مقعد المهزومين محجوزٌ اليوم بجدارة لكل مَن:

- استهان بقوة عدوه واستخفَّ به.
- تلقى عدوه وهو كسلان وخامل.
- واجه عدوه بغير عُدة وإعداد.
- لقي عدوه دون أن يعرف عن أسلحته ومواطن ضعفه وقوته شيئا.

هو تحذير رباني موغل في القِدم ..

حذرنا فيه ربنا منه قبل أن نولد، ونحن لا زلنا نطفة في صلب أبينا آدم ..

أي قبل أن نخوض غمار المعركة مع هذا العدوّ ونقع في شباكه، فقال ربنا لأبينا:

(٩) شجرة المعارف والأحوال ١٢٠.
(١٠) الزهد الكبير للبيهقي ١/١٩٩.

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧].

والتنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّي في النفس المناعة المطلوبة، ويحصِّنها ضد الأمراض لتأخذ نصيبها من المناعة اللازمة والمقاومة الصلبة، ثم أطلعنا على هذه الحقيقة المجردة:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦].

وأمرنا بالعمل في ضوء هذه الحقيقة، فجاء الأمر الإلهي مستنفرًا قواك ومستفزًا مروءتك:

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

فلا يحفِّز النفس على بذل غاية الجهد مثل الصراع، ولا يستخرج منها أقصى ما تستطيع مثل الحرب والخوف من فقدان الحياة، فإن نحن لم نلتفت إلى الواجب العملي المترتب على هذه الآية، فما فهمنا مراد ربنا وما عقلنا كتابه.

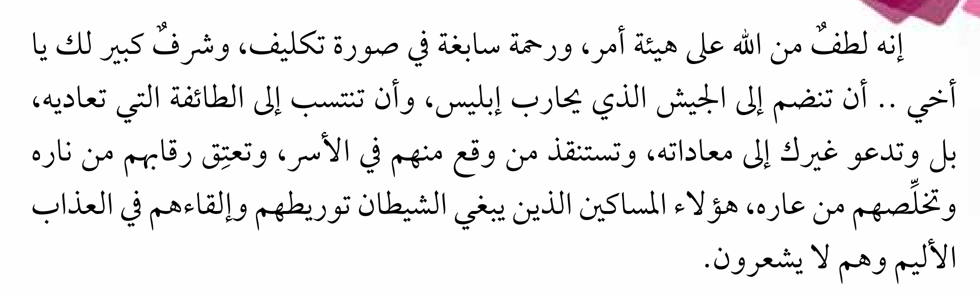
إنها آية تأمرنا برد العداوة بمثلها، وابتداء العدو بالهجوم قبل أن يفترسنا، فهل يعقل بعد أن عرفت عداوته أن تصغي إليه أو تبدو منك بادرة مودة تجاهه أو أي استعداد للتعاون؟!

إنه أمرٌ مُخِيف؛ أنْ نتعامَل مع عدوٍّ يكِنُّ لنا أقصى درجات الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ولا يرضى لنا بأقل منَ النار؛ يَرانا ولا نَراه، نغفل عنه ولا يغفل عنَّا، يتسلل تسللًا إلينا من حيث نشتهي دون أن نشعر، ثم نغفل عنه.

قال ابن القيم رحمه الله:

(والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يَقْصُر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس) (١١).

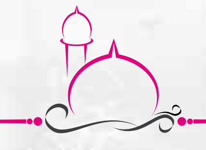
(١١) زاد المعاد ٣/٦.



إنه لطفٌ من الله على هيئة أمر، ورحمة سابغة في صورة تكليف، وشرفٌ كبير لك يا أخي .. أن تنضم إلى الجيش الذي يحارب إبليس، وأن تنتسب إلى الطائفة التي تعاديه، بل وتدعو غيرك إلى معاداته، وتستنقذ من وقع منهم في الأسر، وتعتِق رقابهم من ناره وتخلِّصهم من عاره، هؤلاء المساكين الذين يبغي الشيطان توريطهم وإلقاءهم في العذاب الأليم وهم لا يشعرون.

ولا بد لك بعد هذه الآية أن تراجع قائمة أعدائك، وتعدِّل ترتيبها، وإن كثيرا من معارك اليوم معارك مفتعلة وفي الاتجاه الخطأ، ومع أعداء مزيَّفين، ويا ليتنا نفعل كما فعل العاقل الحاذق **حاتم الأصم** حين قال:

(رأيت كل الناس لهم عدو، فقلت: أَنظر من عدوي. فأما من اغتابني فليس عدوي، وأما من أخذ مني شيئا فليس هو عدوي، ولكن عدوي الذي إذا كنت في طاعة الله أمرني بمعصية الله، فرأيتُ ذلك إبليس وجنوده، فاتخذتهم عدوًا، فوضعتُ الحرب بيني وبينهم، ووترت قوسي، ووصلت سهمي، فلا أدَعُه يقربني) [١٢].



(١٢) حلية الاولياء ٨/٧٩.



العدوٌّ نوعان !

أخي ..

العدوُّ نوعان ظاهر يواجه بالسلاح والعتاد العسكري، وباطن من داخل الإنسان ومن قِبَل شيطانه، والعاقل من علم أي أعدائه أخطر عليه، قال الإمام الفخر الرازي موجِّها جهدك الأكبر ووقتك الأثمن ضد عدوك الأخطر:

«لك عدوان؛ أحدهما ظاهر والآخر باطن ، وأنت مأمور بمحاربتهما، ومحاربة العدو الباطن أولى من محاربة العدو الظاهر؛ لأن العدو الظاهر إن وجد فرصة ففي متاع الدنيا، والعدو الباطن إن وجد فرصة ففي الدين واليقين.

وأيضاً فالعدو الظاهر إن غلبنا كنا مأجورين، والعدو الباطن إن غلبنا كنا مفتونين.

وأيضاً فمن قتله العدو الظاهر كان شهيدا، ومن قتله العدو الباطن كان طريدا، فكان الاحتراز عن شر العدو الباطن أولى»[١٣].

وإبليس ليس أي عدو، بل هو:

- أقدم عدو لله من عهد آدم عليه السلام.
- عدو دائم؛ إذ لا سبيل إلى مصالحته، ولا أمل في إطفاء عداوته إلى يوم القيامة .
- قائد أعداء الله وحاشد قواهم والمخطط الأول لهم .
- أشد عدو؛ لأنه يضيِّع عليك نعيم الأبد في الجنة، ويزيِّن لك عذاب الخلد في النار، ومن فعل هذا متعمِّدًا فهو بلا شك ألدُّ الأعداء وأخطرهم.

لذا كان الاحتراز منه أشد والاستعداد له أوجب.

(١٣) حلية الاولياء ٧٩/٨.

٤. عمليات الثأر المقدس:

قال رسول الله ﷺ:

«إن المؤمن ليُنضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[(١٤)].

أي يجعله ضعيفا مهزولًا، ويجعله نِضوًا: والنضو: الدابة التي أهزلتها الأسفار، وأذهبت لحمها، فالبعير يتجشم في سفره أثقال حمولته، فيصير نضوا لذلك، وشيطان المؤمن يتجشَّم أثقال غيظه منه، لما يراه من الطاعة والوفاء لله، لذا قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

(شيطان المؤمن مهزول)[(١٥)].

أخي .. ترجمة هذا الحديث إلى اللغة العملية في الحياة اليومية:

علامة إيمانك إرهاق شيطانك، وراحة شيطانك من ضعف إيمانك.

ومن استراح اليوم في هذه المعركة فقد أراح عدوه وسلَّمه مفاتيح ظفره، ومن تعب وكدَّ فقد أرهق عدوه ليرجع بأذيال الخيبة والخسران.

وتستطيع أن تعرف من خلال راحتك أو تعبك في معركة اليوم المسافة بينك وبين النصر أو الهزيمة، فرجلٌ مثل **عمر** رضي الله عنه كسر ظهر شيطانه حتى فرَّ منه، وغيره لا يُتعِب شيطانه بل يخدمه، حتى يفوِّضه إبليس في بعض مهامه، ويوكل إليه بعض مسؤولياته، ثم يخلد إلى النوم مطمئنا إلى كفاءة جنده وأبنائه!!

يا جندنا البواسل ..

إن تتعبوا اليوم .. فالراحة والنعيم في شدة الشوق إلى المجتهدين!!

أما أنتم يا من استراحوا .. فلتعب الآخرة تخطِّطون، ولشقاوة النار تتأهبون.

---

(١٤) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٤٢٢.

(١٥) إحياء علوم الدين ٣/٣١.

ولهذا كانت القاعدة التي قرَّرها ابن القيم للتعامل مع هذا العدو حاسمة، ولا تقبل النقاش والمجادلة، ونصُّها كما يلي:

(فمن لم يعذّب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذّبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذِب شيطانه أو يعذِّبه شيطانه)[١٦].

غالب أنت أو مغلوب في هذه المعركة، وتنال من عدوِّك أو ينال منك، والعاقل من ظفر بعدوه قبل أن يظفر به.

الثأر القادم

أخي .. معنى آخر هام نستنبطه من هذا الحديث:

أنت تتعامل مع عدو لا يفهم سوى لغة القوة، ولا يحترم إلا الأقوياء، وسبق وأن ذكَّرك ربك بثأرك القديم لتسعى في طلبه طيلة عمرك، فقال عز وجل:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

وإثارة الغيرة في طلب الثأر معروفة خاصة عند العرب[١٧]، وربك يستحثك بكل

(١٦) بدائع الفوائد ٢/ ٢٥٦ .

(١٧) الثأر عند العرب عادة مترسخة تروى حولها الأخبار وتنشد الأشعار حتى قيل لأعرابي: أيسرك أن تكون من أهل الجنة وأنك لا تدرك ثأرا؟ قال: بل يسرني أن أدرك الثأر وأنفي عني العار، وأدخل مع فرعون النار. روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار ١/ ٩٥ - ابن الخطيب - ط دار القلم العربي.

طريقة على عداوة إبليس، ولذلك ذكَّرك بتاريخ أبيك وقصة خروجه من الجنة لتسعى في طلب الثأر وشفاء الصدر، ولا تلتذذ بمنام حتى تدرك غايتك وتهزم عدوك. جاء في أمثال العرب:

(لا ينام من أثأر).

قال **الطاهر بن عاشور**:

(وهذا أصل عظيم في تربية العامة، ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثًا على أخذ الثأر، وذلك أن شأن الذرية أن تثأر لآبائها وتعادي عدوهم) [(١٨)].

ثأرك يا أيها العربي

ولم يكتفِ بأبيك آدم فحسب، بل تجاوزت عداوته إلى كل الأنبياء وصفوة الأتقياء، فتصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، وتصدى لعيسى بن مريم حين أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده وصان عبده ورفعه إليه، وتصدى لزكريا ويحيى عليهما السلام حتى قُتِلا أبشع قتلة، واستثار فرعون وزيَّن له الفساد الأعظم حتى ادعى الألوهية، وتصدى لنبيك ﷺ وأعان الكفار على قتله بجهده، بل وتفلَّت عليه بشهاب من نار يريد أن يرميه به[(١٩)]، وأعان اليهود على سحره، وغير ذلك

---

(١٨) التحرير والتنوير: ١/٤٣٤.

(١٩) في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٩٩٥: جاءت الشياطين إلى رسول الله ﷺ من الأودية وتحدرت عليه من الجبال وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ قال: فرُعِب وجعل يتأخر. قال: وجاء جبريل عليه السلام، فقال : يا محمد قل!! قال: ما أقول؟ قال: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرُج فيها، ومن شرِّ ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمان. فطُفئت نار الشياطين، وهزمهم الله عز وجل. وفي مسلم والنسائي عن أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ: إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك. ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة.فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح مُوَثَّقا يلعب به ولدان أهل المدينة. صحيح الجامع رقم: ٢١٠٨

مما لا يحصى من تاريخ العداوة المرير الذي يجعل مبرِّرات ثأرك موغلة في القدم غير قابلة للإحصاء والعدِّ .

أخي ..

عمليات الثأر حركة وأفعال لا حروف وأقوال، والذي يكتفي اليوم بقذف كلماته في وجه أعدائه يفرُّ منهم غدا عندما يجد الجِدَّ وتبدأ الملحمة، أما القوي المقدام نافذ العزم والحسام فهو الذي يدع الميدان يتكلم والأحداث تنطق، وصمته البليغ يبعث الرعب في قلب عدوه مما هو مرتقب.

إن زيادة القول غالبا ما تحكي النقص في العمل، وإن الطاقة المبذولة في الوعيد والتهديد قد تستنزف طاقة المرء الموجهة إلى التنفيذ والتشييد، ولهذا كان أمر النبي ﷺ حكيما واضحا:

«لا تسبوا الشيطان، وتعوَّذوا من شرِّه»(٢٠).

وماذا تفيد من سبِّ الشيطان؟!

وما يضيف لصحيفتك؟!

أما التعوذ بالله من شره فهو دواء ناجع.

بل عدونا في هذه الحالة ينتشي من سبِّه وشتمه، وبهذا أخبرنا النبي ﷺ حين كان أردف رجلا على دابته فعثرت الدابة، فقال الرجل: تعس الشيطان، فقال:

«لا تقل تعِس الشيطان، فإنك إذا قلتَ ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب»(٢١).

---

(٢٠) صحيح: السلسلة الصحيحةرقم: ٢٤٢٢.
(٢١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن والد أبي المليح كما في صحيح الجامع رقم: ٧٤٠١ .

قال **ابن القيِّم**:

(ومثل هذا قول القائل: أخزى الله الشيطان، وقبحَّ الله الشيطان، فإن ذلك كلة يفرحه ويقول: علم ابن ادم أني قد نلته بقوتي، وذلك مما يعينه على إغوائه ولا يفيده شيئا، فأرشد النبي ﷺ من مسَّه شيء من الشيطان أن يذكر الله تعالى ويذكر اسمه ويستعيذ بالله منه، فإن ذلك أنفع له وأغيظ للشيطان)[٢٢].

وهذا **حسان بن عطية** يتخيَّل الشيطان وهو يتكلم ساخرا ممن يلعنه:

(إذا لعن العبد الشيطان قال: يلعنني وقد لعنني الله قبله)[٢٣].

قال **أبو الجوزاء**:

ما لعنت شيئا قط، ولا أكلت شيئا ملعونا قط، ولا آذيت أحدا قط.

قال **الإمام الذهبي**:

(انظر إلى هذا السيد، واقتد به) [٢٤].

كان **عبد الملك** يرسل إلى أم الدرداء، وربما باتت عنده، فدعا **عبد الملك** خادما، فأبطأ عليه، فقال: اللهم العنه، فقالت: لا تلعنه؛ فإني سمعت **أبا الدرداء** يحدِّث عن رسول الله ﷺ قال:

«إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة» [٢٥].

ووهبك **وهب بن مُنَبِّه** بهذه الحكمة البليغة ونبَّهك بها:

(اتق الله ولا تسبَّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر)[٢٦].

---

(٢٢) زاد المعاد ٢/ ٣٢٤ ط مؤسسة الرسالة .
(٢٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٦/ ٧٤،٧٥.
(٢٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧١
(٢٥) التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم: ٥٧١٦.
(٢٦) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٠ ط دار المعرفة.



٥. طلب المدد الإلهي والَبشَري في المعركة:

ومن أهداف هذا الكتاب أن يبصِّرك بأمضى أسلحتك التي غفلت عنها، ويذكِّرك بنقاط قوتك، لأن الشيطان يستأسد عليك في أحيان كثيرة، وتحتاج عندها العون.

- يستأسد عليك الشيطان في حالات ضعف الإيمان.
- يستأسد عليك في لحظات الخلوة ومفارقة الصالحين .
- يستأسد عليك لحظة غفلة عن ذكر أو استعار شهوة .
- يستأسد عليك عند غربتك أو عند سفرك[٢٧] .
- يستأسد عليك حين تنسى سلاحك أو تنام عنه، ودَّ أعداؤكم من شياطين الإنس والجن ﴿ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢] .

ويستأسد عليك بأعوان من الإنس يرسلهم عليك ليحوطوك من كل جانب، ويحجبوا عنك النور: نور الهداية والتوفيق: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] .

هذا عنه فماذا عنك، فبماذا تستعين على عدو مستأسد وجبار يتهدد؟

إن مددك اليوم على عدوك الشيطاني الإنسي والجني مددان: سماوي من الله وحده خالقكما والعالم بمصدر قوتكما وضعفكما ، وآخر بشري تستمده من أصحاب القوة الإيمانية والصلابة في دين الله.

إن العبد أحوج ما يكون إلى ربه، وأفقر ما يكون إليه، وأضعف من أن يواجه عدوه وحده، فلو بدت منه صيحة استغاثة لأغاثه، ولو اتكل على نفسه وواجه منفردا لرجع

(٢٧) ومن هنا كان الدعاء في السفر: اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، وكان من بطولة يوسف -عليه السلام- اعتصامه بربه وعفته في غربته، حيث لا يخشى الفضيحة بين من يعرفه.

بالخذلان، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه:

(إنما مثل ابن آدم كالشيء الملقى بين يدي الله -عز وجل- وبين الشيطان، فإن كان لله فيه حاجة حازه من الشيطان، وإن لم يكن لله فيه حاجة خلى بينه وبين الشيطان)(٢٨).

بل ولا ينتصر العبد على عدوه إلا بربه، وكل من تعلق بغير الله خُذِل من جهة ما تعلَّق به، ولذا فقد رسَّخ ابن القيم هذه القاعدة وهو يصنع مدارجه فقال:

(كمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله)(٢٩).

وتذكّر أخيرا..

إذا نبحتك كلاب الراعي، فاستعن بالراعي يكفك كلابه!

وهذه معركة الانتصار فيها لا بذكاء أو دهاء، بل بصدق اللجوء إلى الله، وإلا فالخذلان. لمح ذلك ابن تيمية في ملاحظة ثمينة فقال:

(قد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدِّهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرا، ويهديه الله لما اختُلِف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به؛ فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته، خُذِل)(٣٠).

ولذا لا يُعجَبُ بعمله إلا ناقص، ولا يعتمد على سعيه إلا مخذول، وقد تعلَّم هذا الدرس الأهم من قصة إبليس الرجلُ الصالح بِشْر بن الحارث ؛ كان يصلي يوما، فأطال الصلاة، ورأى رجلا ينظر إليه معجبا به ففطِن له بشر فقال للرجل:

(لا يعجبك ما رأيت مني، فإن إبليس قد عبد الله مع الملائكة كذا وكذا)(٣١).

(٢٨) مدارج السالكين ١/ ٢٠٠ .
(٢٩) مدارج السالكين ١/ ٢٠٠ .
(٣٠) درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤ ابن تيمية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
(٣١) حلية الأولياء ٦/ ٢٤١.

٦. نيل أعلى درجات محبة الله:

عبودية المراغمة عبودية غائبة لا ينتبه لها إلا الأقوياء في دين الله، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له. قال ابن القيم: «**وهذه عبودية لا يتفطَّن لها إلا الأكياس**»، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في كتابه، فقال عز وجل:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠]

وإنما سُمِّي المهاجر مراغما حيث يراغم أعداء الله ويغيظهم بهجرته وفراره بدينه ونجاته من فتنة أرادوا له الوقوع فيها.

وإغاظة الكافرين لا يضيع ثوابها عند الله، بل هي مكتوبة مسجلة ليجازى بها أصحابها يوم الجزاء. قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فإغاظة أعداء الله من الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له فموافقته فيها من كمال العبودية، وهذا في عموم أعداء الله، فكيف بألدِّ أعدائه وقائدهم وأقدمهم وهو إبليس!!

ولأجل هذه المراغمة حُمِد التبختر بين الصفين كما فعل أبو دجانة **سِماك بن خرشة** رضي الله عنه حتى أثنى عليه رسول الله ﷺ.

وقد شرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين وقال إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان، وسمَّاها المرغِمَتَين[٣٢]

---

(٣٢) قال رسول الله ﷺ: إذا شك أحدكم في صلاته فليلق الشك، وليبن على اليقين، فإن استيقن التمام سجد سجدتين، فإن كانت صلاته تامة كانت الركعة نافلة والسجدتان نافلة، وإن كانت ناقصة كانت الركعة تمام الصلاة والسجدتان تُرغمان أنف الشيطان. حسن: رواه ابن حبان والحاكم عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٣ .

وهذا مفهوم، لأنه لا يغيظ هذا العدو أكثر من سجدة تذكِّره بالخطيئة الملعونة والماضي المرير والمشهد المؤلم، فما يلبث أن يبكي بكاء مريرا على ما كان منه. قال رسول الله ﷺ:

«إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله، وفي رواية يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فأبيتُ فلي النار»[٣٣].

وقد نبَّهنا **كعب** إلى هذه الطريقة في إيلام العدو فقال:

(ليس شيءٌ أشد على إبليس وجنوده والشياطين ولا أكثر لبكائهم من أن يروا مسلما ساجدا، يقولون: بالسجود دخلوا الجنة، وبالسجود دخلنا النار)[٣٤].

وإبرازا لقيمة عبادة المراغمة الغائبة، فقد رأى **ابن القيم** أنها سلم الوصول إلى مقام الصديقية:

(فمن تعبَّد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة)[٣٥].

ومما يغيظ إبليس اليوم:

- أن تكسب كل يوم أرضا من إقطاعه، وتغزو مستعمرة من مستعمراته، وتطهِّرها من آثاره.
- أن لا تكتفي بنجاتك حتى تمد طوق النجاة إلى الآخرين، فتنتزع من بين مخالبه ضحية من ضحاياه، وتنقلها من حزب الشيطان إلى حزب الرحمن.
- أن تنجو من مكائد طالما أوقع فيها غيرك وقهرهم بها.
- إذا خطر لك خاطر بسوء على مسلم، فاقلب السحر على الساحر، وزِد في

(٣٣) صحيح: رواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٤٣٨.
(٣٤) حلية الأولياء ٦/٢٩
(٣٥) مدارج السالكين ص ٢٢٦





مراعاته وادعُ له بالخير، فإن ذلك أكثر مما يغيظ الشيطان ويصرف عنك وسوسته، ويردُّ كيده في نحره.

- أن تتغلب على نقاط ضعفك التي سبق أن هاجمك منها.
- أن تقوم من هزيمتك وتنتفض من سقطتك كلما وقعت لتستأنف المعركة ولا ترفع يوما راية يأس أو استسلام.

إذا أغضبك أحد واستدرجك الشيطان لرد الإساءة بمثلها، فاقرأ كيف تغيظ الشيطان في ما يلي:

- قيل **للفضيل بن غزوان**: إن فلانا يذكرك. فقال:

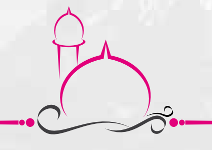
والله لأغيظن من أمره. قيل: ومن أمره؟! قال:

(الشيطان.. اللهم اغفر له)[٣٦].

- جاء غلام **لأبي ذر** رضي الله عنه وقد كسر رجل شاة له فقال له: من كسر رجل هذه؟

قال: أنا فعلته عمدا لأغيظك فتضربني فتأثم. فقال:

(لأغيظنَّ من حرَّضك على غيظي، فأعتقه)[٣٧].



---

(٣٦) الإحياء ٣/ ٣١٤.

(٣٧) مختصر منهاج القاصدين ص ١٨٣.

بطولات ميدانية

وفي هذه المراغمة مخالفة أمر الشيطان في كل شي، ولو كان ظاهره خيرا، فإن الشر كامن فيه. قال الحارث بن قيس:

«إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي فقال: إنك ترائي، فزدها طولا»[٣٨].

(٣٨) تلبيس إبليس ١/ ٢٥.



٧. جهادان:

قال ابن القيم:

(ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج، وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أُمِرت به وتترك ما نُهِيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبِّط العبد عن جهادهما، ويُخذِّله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما)[٣٩].

سئل عبد الله بن عمرو: كيف تقول في الجهاد والغزو؟ قال: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها، فإنك إن قُتلتَ فارّاً بعثك الله فاراً، وإن قُتلت مرائيا بعثك الله مرائياً، وإنْ قُتلتَ صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسبا.

إخوتاه .. من فرَّ من جهاد نفسه اليوم فرَّ من الزحف أمام العدو غدا ..
ومن ولى الأدبار أمام الشيطان فتح أول ثغرة يلج منها العدو إلى ديار المسلمين ..
ومن أضاع الإخلاص حلَّت بنا الهزيمة بسببه ولا مناص ..
وكيف يحرِّر الأقصى من لم يحرِّر نفسه من العدو الأدنى ..

(٣٩) زاد المعاد ٣/٦.

أما من جاهد هواه ليبني تقواه .. ومن قاوم شيطانه ليحفظ إيمانه .. من سال دمه أثناء مبارزته لهواه .. فهو البطل المقدام والرجل الكامل ..

يُستقبل غدا استقبال الفاتحين، وترفع فوق رأسه راية النصر المبين ..

جزاءً وفاقا ..

فابدأ جهادك مع الشيطان من اليوم والموعد غدا: أسوارَك .. قدسنا الحبيبة!!.

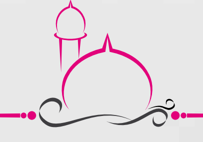
٨. معرفة طبيعة العدو ومكائده وجنده:

ماذا تعرف عن عدوك؟! سؤال يحمل في ثناياه مفاتيح التغلب عليه، وفي حكمة حربية صينية قديمة:

> **إذا كنت تعرف العدو وتعرف نفسك فلا داعي من الخوف من خوض مائة معركة، إذا كنت لا تعرف نفسك أو العدو فستنهزم في كل معركة، وإذا كنت تعرف نفسك ولا تعرف العدو فكل نصر تحرزه سيقابله هزيمة تلقاها.**

فلا شك أن معرفة مكائد العدو وحيَله والتعرف على جنوده وقدراته خطوة لازمة لإبطال كيده ونزع فتيل قوته، ومن ثم تحقيق النصر عليه. وحيل إبليس لا انتهاء لها، وسنكشفها في هذا الكتاب واحدة تلو الأخرى - إذن الله- لنردَّه مدحورا ،بعون الله.

إن معلومة واحدة هامة قد تقلب الهزيمة إلى نصر مبين، وهذا الكتاب الذي بين يديك كنز معلوماتي زاخر يكشف كل نقاط ضعف العدو، ويرشدك إلى حسن استغلالها لترجع بإذن الله ظافرا منتصرا.



اللص !

١. **اللص لا يعمل إلا في الظلام** حتى لا يكشفه أحد، لذا يغزو القلوب السوداء المظلمة فلا يشعر به أصحابها.

٢. انكشاف اللص!

واللص إذا طلع عليه الصباح ولى هاربا، لذا ينكشف في الحال عند تسلله إلى القلوب المشرقة بنور الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٣. إغراء السرقة!

السرقة جد مغرية للسارق، فإن سرق لص ولم يجد من يردعه أغراه ذلك بمزيد السرقة وعظيم النهب، ولعل مصيبتك وقتها أكبر وخسارتك أفدح، ولذا فالصغائر إلم تستدرك بتوبة انقلبت كبائر، والخواطر إلم تصحح جرَّت الجوارح إلى المذابح.

. دخل رجل على سهل بن عبد الله، فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعى، فقال: اشكر الله، فلو دخل اللص قلبك، وهو الشيطان، وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟

٤. المسروقون!

الشيطان سارق الإيمان، واللص لا يسرق إلا صاحب غفلة!

٥. الحراسة المشددة!

إذا وجد اللص حراسةً على باب الدار ولى على الفور الأدبار، وليس أشد من حراسة الذكر ، وإذا ذكر الله خنس الشيطان أي انخذل وهرب، ولأن الشيطان جبان، فهو يهرب من الذكر، قال ﷺ: «إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون مكان الروحاء» (٤٠).

---

(٤٠) صحيح مسلم.

. والروحاء مكان يبعد ما يزيد عن ٣٠ كيلو مترا عن المدينة المنورة

٦. استرداد المسروق!

ليست نهاية المطاف بل طارد اللص واسترد بضاعتك المنهوبة وإيمانك السليب (واتبع السيئة الحسنة تمحها).

٧. الكثرة تغلب الشجاعة!

كثرة اللصوص تجعل من المحال أن تقاوم السرقة خاصة إذا كنت أعزل الإيمان،فلا تغامر بوضع نفسك وسط صحبة (تسرق إيمانك).

٨. سرقة الوزير ليست كسرقة الفقير .

٩. ثغرة أمنية!

هل علمت من أين تسلل إليك عدو الله؟!

ومن أي نقاط الضعف غزاك؟

وهل حصَّنت دفاعاتك جيدا تأهبا للهجمة القادمة؟!

١٠. نجاتك بيدك!

تعرضك للصوص وإقامتك بين أظهرهم تغريهم بسرقتك ومهاجمتك، أما التحصن والابتعاد عن طريقهم فهو صمام أمان، ودليل على اتصاف عقلك بالرجحان.

١١. التفرد خطر!

انفرادك بالسير وحدك يغري بك اللصوص، فإن استغثت في العراء لم يجبك أحد، وإن طلبت النجدة لم تجد غير رجع الصدى، وكنت مشاركا في الجريمة: تفرَّدتَ فتفرَّد اللصوص بك، ونهبوا منك أغلى ما تملك.





الفصل الثانـي

معالم المعركة



الفصل الثاني



معالم المعركة

١. الحصار:

بدأ هذا الحصار مع أول لحظات ابتداء المعركة واشتعال العداوة بيننا وبينه، فقد أعلن عنه إبليس فور طرده من الجنة انتقاما وثأرا، فأقسم متوعِّدا:

﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

قال قتادة: (**أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك. لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله**)[٤١].

فلم يترك لنا سوى السماء أو الأرض، والسماء طريقك إلى الله ترفع يديك داعيا مستغيثا، أو الأخرى وهي الأرض بأن يقضي عليك الموت!! فلا فرار في هذه المعركة ولا مهرب من هذا العدو إلا بالاحتماء بالرب أو الرحيل إلى القبر.

فما من طريق خير وطاعة فكَّرت أن تسلكه إلا وتربَّص بك ووسوس إليك ليعوقك عنه، ويحول بينك وبينه .. أما إذا كانت الأخرى وكان الشر .. أخذ بيديك وحملك إليه .. بل واستعان بشيطان آخر .. ليستلمك من ناحية اليمين ويأتي هو من الشمال .. فتتهادى إلى المعصية بين شيطانين!!

ومن معاني الحصار: أنه ليس هناك مكان على وجه الأرض أنت فيه بمنأى عن شيطانك، ولو كان أمام الحجر الأسود!! واسمع ما حدث مع **الأصمعي** أمام الكعبة وبم وسوس له شيطانه.

---

(٤١) تفسير ابن كثير ٢٧٣/١.

قال **الأصمعي**:

رأيتُ جارية في الطواف كأنها مهاة، فجعلت أنظر إليها، وأملأ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا!! ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يومــا أتعبتك المناظر

رأيتَ الذي لا كلـــه أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر [٤٢].

وقد يكون **الحصار زمانيا**، بمعنى أنه يغطّي كل لحظة في عمرك من الماضي والمستقبل، فقد أتاهم من بين أيديهم -أي من جهة المستقبل- ليقنِّطهم من توفيق الله لهم، ومن خلفهم -أي من قِبل الماضي- فآيسهم فيها من مغفرة ربهم لما سلف من الذنوب.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٦].

قال **ابن زيد**:

(زيَّنوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم، وما يستقبلون منها).

ومن الحصار الزماني:

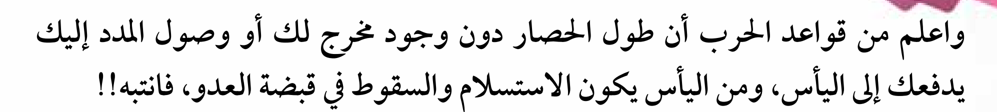
أن كل معركة في الدنيا لها وقت محدود، ومواعيد لالتقاط الأنفاس واستراحة المقاتلين، إلا معركتنا مع الشيطان، كل ساعاتها اقتحام والتحام، ولو كانت ليلة القدر!!

(٤٢) روضة المحبين: ١/٩٧، ومما جاء في الكتاب أيضا: بينا رجلٌ يطوف بالكعبة إذ بصر بامرأة ذات جمال وقوام، فأفتنته وشغلت قلبه فأنشأ يقول:

ما كنت أحسب أن الحبَّ يعرض لي ... عند الطواف ببيت الله ذي الستر

حتى ابتليت فصـــار القلب مختبلا ... من حب جـــارية حوراء كالقمر

ياليتني لم أكن عاينت صــــورتها ... لله ماذا توخـــــاني به بصري



واعلم من قواعد الحرب أن طول الحصار دون وجود مخرج لك أو وصول المدد إليك يدفعك إلى اليأس، ومن اليأس يكون الاستسلام والسقوط في قبضة العدو، فانتبه!!

٢. السهام:

مما جاء في وصف النظرة أنها **سهم مسموم من سهام إبليس** [٤٣].

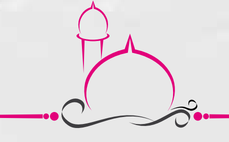
ولماذا السم؟

والجواب: ليكون القتل أسرع وأفتك، ولاشك أن قلبا شقي بالنظرات يصبح أقرب إلى الموات، حتى لا تعود تؤثِّر فيه الجنائز والعظات، ويصم عما فيه خيره وصلاحه، فأنى لعاشقٍ أن يجد مكانا في قلبه متسعا لغيره، وكيف لأسير شهوة أن يستنشق نسمة حرية!!

وفي الحديث إشارة إلى أن تتابع النظر إلى الحرام واعتياده يؤدي إلى موت القلب حتما لأن تتابع جرعات السم قاتل، ولو كان هذا القلب من أكثر القلوب حياة وأقواه إيمانا.

والسم من طبيعته أنه يسري، وينتقل عن طريق الدم إلى كل الجوارح، فالعقل يظل مشغولا، واللسان ينطق غزلًا ولهوًا، والرِجل تهوي بصاحبها إلى الهاوية، لأن السم طال الجميع.

فالنظرة إذن من أسلحة الشيطان الفتاكة، ونصلها غُمِس فترة طويلة في سم ناقع حواه إناء الشهوة، ثم أخذ الشيطان هذا السهم ووضعه في قوسه، وصوَّب بدقة متناهية نحو مركز القيادة، ثم أطلقه مباشرة صوب قلبك، فإذا كان القلب قد تدرَّع بدرع التقوى والخوف من الجليل تكسَّرت السهام على أعتابه، وإلا نفذت إلى مقتل.



(٤٣) السلسلة الضعيفة رقم: ١٠٦٥.



إخوتاه .. وصف معركة اليوم:

السهام منطلقة بغزارة من كل صوب وحدب، من شاشات ومجلات وعروض أزياء وموضات، وفتن ومغريات.

فإما النجاة من السهام المسمومة بعدم التعرض لمرمى نيرانها وهجر أماكن العصيان.

وإما خوض المعركة بدرع إيماني صلب تتكسر عليه سهام الأهواء ومحاولات الإغواء.

والنظرة السهم قد تكون كذلك نظرة حاسد تدمِّر حياة المرء وتقلبها إلى شقاء، ليلعن حظه وقلة نصيبه من دنياه، ثم يسري السم إلى الجسد ليكون الوقوع في الحرام والتجرؤ على الرشوة والتعامل بالربا وأكل أموال الناس بالباطل، والحرام يجرُّ معه أخاه من الحرام.

٣. الرايات:

قال رسول الله ﷺ :

«ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان راية بيد ملك وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله عز وجل اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته»[٤٤].

والراية فيها احتدام القتال وحمل النفس على الاستبسال، وهل هناك معركة أشرس من معركة ضد الشيطان تخوض غمارها اليوم وكل يوم.

والراية رمز الانتصار وعلامة الظفر ودليل القضاء على مقاومة الخصم، فمن رفع

(٤٤) صحيح: صححه العلامة أحمد شاكر والشيخ مقبل الوادعي.

رايته على أرض عدوه فقد أعلن انتصاره عليه واستيلاءه على ملكه ونزعه لكل مصادر قوته، وحين يرفعها الملك فهو يُعلِن بها استسلام الشيطان، وحين يرفعها الشيطان فهذا يعني بها انهزامك واستسلامك بعد أن تخليت عن ولاية ربك إلى ولاية عدوك.

والراية فيها توجيه وقيادة، فأنت بحسب وجهتك تُسلِم زمامك لقيادة ملك من الملائكة يتولى توجيهك إلى الخيرات، أو إلى شيطان مريد يقودك نحو المهلكات، فاختر لك قائدا عند كل طلعة من بيتك، وحدِّده مَلَكا أو شيطانا كيف ما تحب!

وجدِّد لنفسك نية صالحة عند كل خروج حتى تُرفع راية مَلَكية فوق رأسك، تُظِلِّك حتى ترجع، فخروج إلى عمل تنوي به الرزق الحلال والسعي على العيال، أو صلة أرحام أو خدمة جار، أو توسعة على أهل، أو نشر هداية، أو أخذا بيد غافل أو على يد ظالم، وهي كلها نوايا صالحة تحتاج إلى قلب يقظ وذاكرة إيمانية قوية.

والراية بروزٌ وشهرة، ودعوة إلى تجمع الأنصار والأعوان، فالذاهب إلى المعصية داعٍ إليها بحاله وإن لم ينطق بلسانه، وهو ما يدمِّر مناعة الأمة الإيمانية، بعكس المتوجِّه إلى الطاعة فهو لسان خير صادحٌ في الناس، ليكون الواحة التي يأوي إليها الحيارى والغافلون.

حين تتبرج المرأة مثلا، فهي تضرب المجتمع في مقتل ..

تغري غيرها من النساء بالتبرج..

تثير شهوة الشباب الظامئ..

تهوِّن أثر المعصية على القلب..

تزهِّد الناس في من ترتدي الحجاب على حساب اللحم المكشوف..

وهي كلها أهداف شيطانية يصل إليها الشيطان عن طريق امرأة التحقت بجيشه وأصبحت من جنده متبرجة، يرفع بنفسه رايته فوق شعرها المصفَّف!!



٤. الشِّراك:

في الصحيح أن **أبا بكر الصديق** سأل النبي ﷺ أن يعلِّمه دعاء، فقال ﷺ:

«يا أبا بكر! قل: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، ربَّ كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشَرَكه، وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجرَّه إلى مسلم» (٤٥).

وقد أوصى رسول الله الصديق أن يردِّدها ثلاث مرات كل يوم وليلة كثلاث جرعات شافيات وحصون مانعات، فقال:

«قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وإذا أخذت مضجعك» (٤٦).

وقد جاء لفظ (وشِرْكِه) أي ما يأمرك به من الشرك، أو (شَرَكِه) أي من الشَّرَك، وهو ما يُصاد به السمك والطير وغيرهما، لأن الشيطان يصيد بني آدم بشراك الشهوات أو شراك الشبهات.

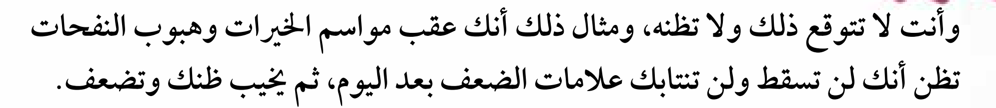
☆ **والشِراك فيها الخداع والتخفي والإغراء، فظاهرها غير باطنها، ظاهرها رائع وباطنها سم ناقع وهلاك واقع، فكم من شر أوقع الشيطان فيه عن طريق خير، وكم من معصية ساقها الشيطان عن طريق طاعة.**

- مال كثير ظاهره متعة ورخاء ومن ورائه فتنة وشقاء.
- تصدي لدعوة وطرق لأبواب خير تنتهي إلى حب ظهور يقصم الظهور.
- إطالة ركوع وبكاء سجود يقود إلى رياء وسمعة.

☆ **والشِراك فيها كذلك المباغتة وعنصر المفاجأة، ذلك أن الشيطان يهجم عليك**

---

(٤٥) صحيح: رواه الترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٧٨١٣.
(٤٦) صحيح: صحيح الأدب المفرد ١٢٠٢ والسلسلة الصحيحة ٢٧٥٣



وأنت لا تتوقع ذلك ولا تظنه، ومثال ذلك أنك عقب مواسم الخيرات وهبوب النفحات تظن أنك لن تسقط ولن تتنابك علامات الضعف بعد اليوم، ثم يخيب ظنك وتضعف.

☆ **والشِراك فيها التربص كل لحظة، والتحفز لإسقاطك والنيل منك ما تبقى في حياتك نفَس.**

وقوله: (**فاطر السموات والأرض**): خالقهما ومبدعهما من العدم وعلى غير مثال سبق، وهما خَلْقان عظيمان يلقيان في روعك أنك لا تساوي ذرة رمل في ملك الخالق أو قطرة ماء من بحاره.

(**عالم الغيب والشهادة**): فلا يخفى عليه خافية، فهو العليم بكل ما ظهر وما استتر، فالغيب عنده شهادة، والسر علانية، فيمتلئ قلبك طمأنينة أنه محيط بكل شيء، لا يغيب عنه ولا يُعجزه شيء.

(**ربَّ كل شيء ومليكه**): فلا يخرج خلق عن ربوبيته، فهو الرب الشفيق الرحيم بمن يرعاه، وهو مع رحمته يملك مفاتيح كل شيء، فلا يعرف الصنعة مثل صانعها، لتدرك بحق أن أمر هدايتك وحمايتك متعلق بكلمة واحدة منه مفادها (كن)، بل وبدون هذه الكلمة إذا أراد ربنا إنفاذ أمرَ حمايتك.

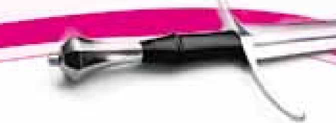
(**أشهد أن لا إله إلا أنت**): توسل إليه بأحب الكلام إليه وأفضل الذكر وأعلى شعب الإيمان، ولذا تخترق هذه الكلمة الحجب وتقطع أطباق السماوات في (صفر) من الزمن، واسمع بشارة رسول الله :

«ما قال عبدٌ لا إله إلا الله قطُّ مخلصا إلا فُتِحت له أبواب السماء حتى تُـفضي إلى العرش ما اجتُنِبت الكبائر» (٤٧) .

وبعد التوسل تأتي الاستعاذة الشاملة لكل شيء ومن كل شيء. قال **ابن القيم**:

---

(٤٧) صحيح : السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٥٣.



(فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان، وغايته: إما أن تعود على العامل. أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما) [٤٨] .

قال المناوي:

(فإن قلت لم قدَّم الاستعاذة من شر النفس مع أن شر الشيطان أهم في الدفع لأن كيده ومحاربته أشد من النفس لأن شرها وفساده إنما ينشأ من وسوسته، ومن ثم أفردت له في التنزيل سورة تامة بخلافها؟ قلت: الظاهر أنه جعله من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى) [٤٩] .

٥. مركز القيادة والتوجيه والمتابعة ثم المكافأة:

قال رسول الله ﷺ:

«إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئا. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبين امرأته. قال: فيُدنيه منه ويقول: نعم أنت» [٥٠] .

وفي الحديث كشف نبوي لخطة الإعداد الشيطاني، فما عادت سرا، وصارت حديث كل لسان، وفي هذا الحديث:

التخطيط الشيطاني المحكم، واتخاذ مركز القيادة، وجمع الأنصار لهذه المهمة الإبليسية، وفقط في مملكة الشياطين يكون التدني في مدارك الشيطانية السافلة مرتبط ارتباطا وثيقا بحجم إغواء كل شيطان وتأثيره، فالإدناء من إبليس والإقصاء عنه يرتبط ارتباطا رئيسيا بمهارة الإفساد عند كل شيطان، وهذه أمثلة:

(٤٨) إغاثة اللهفان ١/ ٩٠.
(٤٩) فيض القدير ٤/ ٥٢١.
(٥٠) صحيح : السلسلة الصحيحة رقم: ٣٢٦١.

- شيطانٌ يغوي عالما يضل بزلته خلقٌ كثير لهو شيطان مقرَّب من إبليس.
- شيطانٌ يضل مطربا أو ممثلا يهوي بأخلاق الشباب ويشيع الفحشاء هو صاحب الحظوة العليا عند إبليس.
- شيطانٌ يستهدف مُصلحا أو داعية حتى يفتنه، هو صاحب إنجاز يستحق عليه مكافأة الشيطان وتقليده التاج.
- شيطانٌ يغوي أميرا أو حاكما غير شيطان يغوي فقيرا أو مغمورا، الأول تأثيره يعم الأمة، والثاني لا يتجاوز تأثيره نفس من أغواه.

ومعلومٌ أن عدم متابعة العمل بعد صدور التكليف يفقد العمل فاعليته، هذا من الناحية الإدارية، ليتساوى في هذا العمل غير المتابع مع غياب العمل، وبما أن إبليس أستاذ إدارة الإفساد الأول، لذا يعلِّم أتباعه فنون الإفساد، وكيف يبلغون فيها الغايات وأسافل الدركات.

ثم يأتي التحفيز واستلام الجوائز ومكافأة المحسن، عفوا أقصد المسيء، لتكتمل المنظومة الإدارية المتكاملة!! ويقلِّد إبليس أبرع تلامذته تاج الكفاءة الإفسادية في حفلة تتويج متشيطنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ:

«إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده فيقول: من أضل اليوم مسلما ألبسته التاج. قال: فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلَّق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقَّ والديه، فيقول: يوشك أن يبرَّهما، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت! ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت، ويُلبسه التاج» (٥١).

(٥١) صحيح : السلسلة الصحيحة رقم: ١٢٨٠.



أخي .. ها قد حشد الشيطان جنودَه وأتباعه، وجهَّز أسلحته، ونظَّم صفوفه، وأعدَّ عدَّته، وتأهَّب للاستِعداد مِن أجْل مهمَّة محدَّدة وهدف واحد: إغوائك تمهيدا لاقتيادك مغلولة عنقك إلى جهة مشؤومة معلومة: جهنم وبئس المصير، فهل يصح أن تواجه هذا التخطيط المحكم بارتجالية وفوضوية!!

وهل تواجه المدفع بسيف من خشب؟

هل يصلح السيف في زمن القنبلة الذرية؟!

٦. مستعمرات دائمة ومؤقتة:

مستعمرات دائمة:

للشيطان إقطاعات استولى عليها وباض فيها وفرَّخ، ومنها:

الحانات وأماكن المنكرات: وهي أماكن العصيان الدائم غير المنقطع بتوبة أو دمعة، فحانات الخمر وصالات الخنا وأماكن الفاحشة والصالات التي تنكشف فيها العورات بدعوى الفن، وتُنتهك محارم الله تحت ستار الحريات، ومقار الحفلات التي يلتقي فيها الشباب بالبنات يحتفلن بمصرع الإيمان وسفك دمه في الأرجاء، والشيطان مطلعٌ يقهقه من فرط النشوة .. نشوة الانتصار، فكل هذه مساكن دائمة للشيطان يعيث فيها فسادا، ويعبث بمرتاديها، يغوي قلوبهم ويعشعش فيها، ولهذا كانت الصلاة مكروهة بالاتفاق في مواطن الشيطان، وذلك مثل مواضع الخمر والحانة ومواضع المكوس ونحوها من المعاصي الفاحشة، والكنائس والبِيع كما حكى ذلك الإمام النووي.

الأسواق: ويكثر تجمع الشياطين وبقاؤهم في الأماكن التي يستطيعون الإفساد فيها، كالأسواق، فقد قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: **(لا تكونن -إن استطعت- أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها؛ فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته)**[٥٢]، وقد تعلمها

---

(٥٢) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٣٢٦١

من نبيه ﷺ حين قال:

«**خير البقاع المساجد، وشر البقاع الأسواق**» (٥٣) .

ولعل هذا لما فيها من الغش والخداع وإخفاء عيوب السلع، إضافة إلى التبرج وكشف العورات وإطلاق الأبصار، فإذا دخلتها ذاكرا ربك كنت غازيا الشيطان في عقر داره .. ضاربا له في مقتل، ولذا حرص الصحابة فيها على أكثر ما يُحرِق الشيطان: **ذكر الله**.

كان **عبد الله بن عمر** يقول: **إني كنت لأخرج إلى السوق وما لي حاجة إلا أن أُسلِّم ويُسلَّم عليَّ**. وكان **محمد بن سيرين** يدخل السوق نصف النهار يُكبر ويُسبِّح ويذكر الله تعالى قائلا: **إنها ساعةُ غفلة**. وقال **حميد بن هلال**: **مثل ذاكر الله في السوق كمثل شجرة خضراء وسط شجر ميت.**

ولك يا ابن القرن الحادي والعشرين في سلفك المبارك قدوة.

مواضع النجاسات والخلاء: ولهذا كان دعاؤنا عند دخول الخلاء: اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث (٥٤) . فهي بيوت الشياطين، ومستقرها ومستودعها، ولذا نهى النبي ﷺ أن نستنجي بعظْم حيث إنها طعام الجن، وأسدل علينا الستر بيننا وبين الجن عند دخول الخلاء فلا يطلعون منا على عورة، فقال:

«**ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: بسم الله**»(٥٥).

وتسلط الشياطين على بعض الأماكن ثابت في أحاديث كثيرة، فلقد كان من حكمة العالِم الذي جاءه قاتل المائة نفس أن حذَّره لتمام توبته: «**ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء**».

وقد أمر النبي ﷺ الصحابة بأن ينتقلوا من المكان الذي طلعت عليهم فيه الشمس دون أن يصلوا قائلا: «**إنَّ هذا وادٍ به شيطان**».

---

(٥٣) حسن: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٢٧١ .

(٥٤) ذهب جمهور العلماء إلى أنه إذا كان الشخص يقضي حاجته في أماكن لم تعد لذلك كالفضاء مثلا، فإنه يقول هذا الدعاء عند تشمير الثياب.

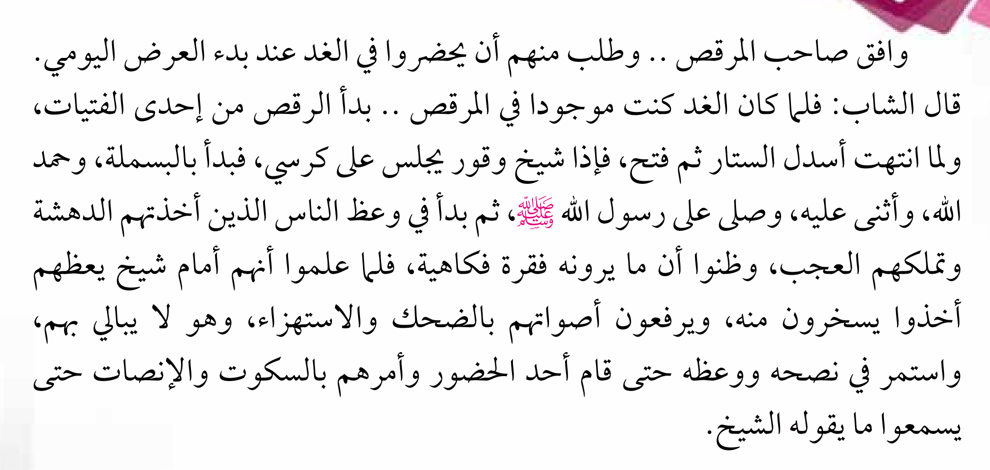
(٥٥) صحيح: صححه الألباني في الإرواء بمجموع طُرقه.



اغزُهم في عقر دارهم!!

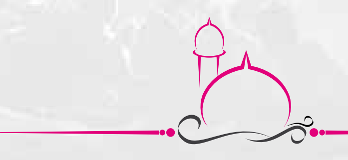
وللأقوياء في دين الله أن يتقدموا إلى هذه المستعمرات الشيطانية ويهاجموها، ومنها أماكن نائية لم يغزُها النور من قبل، وهاكم قصة بطولة من بطولات الدعاة وفيها شجاعة الحق وقوة حامله وشدة إيمانه بدعوته وثقته بربه، ويرويها الشيخ أديب الفقهاء وفقيه الأدباء علي الطنطاوي:

(دخلت أحد مساجد مدينة حلب فوجد شابا يصلي، فقلت: سبحان الله، إن هذا الشاب من أكثر الناس فسادا، يشرب الخمر، ويفعل الزنا، ويأكل الربا، وهو عاق لوالديه، وقد طرداه من البيت، فما الذي جاء به إلى المسجد، فاقتربت منه وسألته: أنت فلان، قال: نعم. قلت الحمد لله على هدايتك.. أخبرني كيف هداك الله؟ قال: هدايتي كانت على يد شيخ في مرقص.. قلت مستغربا: في مرقص؟!! قال: نعم .. في مرقص.. قلت: كيف ذلك؟ قال: هذه هي القصة، فأخذ يرويها، فقال: كان في حارتنا مسجد صغير، يؤم الناس فيه شيخ كبير السن، وذات يوم التفت الشيخ إلى المصلين وقال لهم: أين الناس؟ ما بال أكثر الناس وخاصة الشباب لا يقربون المسجد ولا يعرفونه؟ فأجابه المصلون: إنهم في المراقص والملاهي. قال الشيخ: وما هي المراقص والملاهي؟ ردَّ عليه أحد المصلين: المرقص صالة كبيرة فيها خشبة مرتفعة تصعد عليها الفتيات عاريات أو شبه عاريات يرقصن والناس حولهم ينظرون إليهن، فقال الشيخ: والذين ينظرون إليهن من المسلمين؟ قالوا: نعم .. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله .. هيا بنا إلى تلك المراقص ننصح الناس .. قالوا له: يا شيخ .. أين أنت.. تعظ الناس في المرقص؟! قال: نعم، حاولوا أن يثنوه عن عزمه، وأخبروه أنهم سيواجهون بالسخرية والاستهزاء، وسينالهم الأذى، فقال: وهل أنتم خير من محمد ﷺ؟ وأمسك الشيخ بيد أحد المصلين ليدله على المرقص، وعندما وصلوا إليه سألهم صاحب المرقص: ماذا تريدون؟ قال الشيخ: نريد أن ننصح من في المرقص، تعجب صاحب المرقص، وأخذ يمعن النظر فيهم، ورفض السماح لهم، فأخذوا يساومونه ليأذن لهم، حتى دفعوا له مبلغا من المال يعادل دخله اليومي .



وافق صاحب المرقص .. وطلب منهم أن يحضروا في الغد عند بدء العرض اليومي. قال الشاب: فلما كان الغد كنت موجودا في المرقص .. بدأ الرقص من إحدى الفتيات، ولما انتهت أسدل الستار ثم فتح، فإذا شيخ وقور يجلس على كرسي، فبدأ بالبسملة، وحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ، ثم بدأ في وعظ الناس الذين أخذتهم الدهشة وتملكهم العجب، وظنوا أن ما يرونه فقرة فكاهية، فلما علموا أنهم أمام شيخ يعظهم أخذوا يسخرون منه، ويرفعون أصواتهم بالضحك والاستهزاء، وهو لا يبالي بهم، واستمر في نصحه ووعظه حتى قام أحد الحضور وأمرهم بالسكوت والإنصات حتى يسمعوا ما يقوله الشيخ.

قال: فبدأ السكون والهدوء يخيِّم على أنحاء المرقص حتى أصبحنا لا نسمع إلا صوت الشيخ، فقال كلاما ما سمعناه من قبل؛ تلا علينا آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية، وقصصا لتوبة بعض الصالحين، وكان مما قاله: أيها الناس .. إنكم عشتم طويلا وعصيتم الله كثيرا، فأين ذهبت لذة المعصية؟ لقد ذهبت اللذة، وبقيت الصحائف سوداء ستُسألون عنها يوم القيامة، وسيأتي يوم يهلك فيه كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى .. أيها الناس .. هل نظرتم إلى أعمالكم إلى أين ستؤدي بكم؟ إنكم لا تتحملون نار الدنيا، وهي جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، فكيف بنار جهنم .. قال: فبكى الناس جميعا، وخرج الشيخ من المرقص، وخرج الجميع وراءه، وكانت توبتهم على يده، حتى صاحب المرقص تاب، وندم على ما كان منه) [٥٦] .



(٥٦) علو الهمة: ٢٨٧/٢٨٥ ط مكتبة الكوثر.

البنا في المقاهي!!

كان **الإمام البنا** فارسا مغوارا شجاعا مقداما، فهو صاحب فكرة غزو المقاهي لعرض فكرته ونشر دعوته، واختلف معه بعض تلامذته، (وقالوا: إن أصحاب القهاوي لا يسمحون بذلك ويعارضون فيه لأنه يعطل أشغالهم، وإن جمهور الجالسين على هذه المقاهي قوم منصرفون إلى ما هم فيه، وليس أثقل عليهم من الوعظ، فكيف نتحدث في الدين والأخلاق لقوم لا يفكرون إلا في هذا اللهو الذي انصرفوا إليه؟؟ وكنت أخالفهم في هذه النظرة وأعتقد أن هذا الجمهور أكثر استعدادا لسماع العظات من أي جمهور آخر حتى جمهور المسجد نفسه. لأن هذا شيء طريف وجديد عليه والعبرة بحسن اختيار الموضوع فلا نتعرض لما يجرح شعورهم، وبطريقة العرض فتعرض بأسلوب شائق جذاب، وبالوقت فلا نطيل عليهم القول.

ولما طال بنا الجدل حول هذا الموضوع قلت لهم: ولم لا تكون التجربة هي الحد الفاصل في الأمر؟ فقبلوا ذلك وخرجنا فبدأنا بالقهاوي الواقعة بميدان صلاح الدين، وأول السيدة عائشة ومنها إلى القهاوي المنتشرة في أحياء طولون إلى أن وصلنا من طريق الجبل إلى شارع سلامة، والسيدة زينب، وأظنني ألقيت في هذه الليلة أكثر من عشرين خطبة تستغرق الواحدة منها ما بين خمس دقائق إلى عشرة.

ولقد كان شعور السامعين عجيبا، وكانوا ينصتون في إصغاء ويستمعون في شوق، وكان أصحاب المقاهي ينظرون بغرابة أول القول، ثم يطلبون المزيد منه بعد ذلك، وكان هؤلاء يقسمون بعد الخطبة أننا لا بد أن نشرب شيئاً أو نطلب طلبات، فكنا نعتذر لهم بضيق الوقت، وبأننا نذرنا هذا الوقت لله فلا نريد أن نضيعه في شيء. وكان هذا المعنى يؤثر في أنفسهم كثيراً، ولا عجب، فإن الله لم يرسل نبياً ولا رسولا إلا كان شعاره الأول: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ لما لهذه الناحية العفيفة من أثر جميل في نفوس المدعوين)[٥٧]

---

(٥٧) مذكرات الدعوة والداعية.

غزو جديد!!

ومن إقطاعات الشيطان كذلك: شرائح من المجتمع غابت عنها الهداية فلم تتعرض يوما لهداه، وغيَّبها عن الوعي شياطين من الإنس تأزهم شياطين الجن، فلم تصل أسماعهم كلمة خير واحدة، ولم يفتحوا عيونهم يوما على خير، والأبطال فقط إليهم يتقدمون، ولدعوتهم يتصدون، وقناعَ الغفلة يزيلون، يشعون نورا وسط ظلمة، ويسكبون هداية في أراض مجدبة، لا يهابون انتفاش الباطل ولا يُغلبون، بل يحطِّمون للشيطان دولة، ويكسبون منه جولة، وينكِّسون له كل يوم راية، ويفاجئونه من حيث لم يحتسب، ويباغتونه من مواطن قوته، ليزيلوا عن أنفسهم بجدارة لقب الغفلة كما عرَّفها أبو عبد الرحمن العمري:

(إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله بأن ترى ما يُسخِطه فتجاوزه، لا تأمر فيه ولا تنهى، خوفا ممن لا يملك لك ضرا ولا نفعا)[٥٨] .

مستعمرات مؤقتة:

وتسكن الشياطين البيوت التي يسكنها الناس، لكنها مساكن مؤقتة إن أردت؛ حيث يطردها التسمية وذكر الله تعالى وقراءة القرآن، ولا مكان يستعصي على غزو الشياطين، ولو سكن فيه أتقى الأتقياء وخلَّص الأصفياء، واسمع ما حدث مع سيد الرسل وصفوة خلق الله من أصحابه:

عن زيد بن أسلم قال: عرَّس رسول الله ﷺ ليلة بطريق مكة، ووكَّل بلالا أن يوقظهم للصلاة، فرقد بلال ورقدوا حتى استيقظوا وقد طلعت عليهم الشمس، فاستيقظ القوم وقد فزعوا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادي، وقال: «إن هذا وادٍ به شيطان» ، فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادي، ثم أمرهم رسول الله ﷺ أن ينزلوا وأن يتوضئوا، وأمر بلالا أن ينادي للصلاة أو يقيم، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، ثم انصرف إليهم وقد رأى من فزعهم، فقال: «يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو

---

(٥٨) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا ص ١٥.

شاء لردها إلينا في حين غير هذا، فإذا رقد أحدكم عن الصلاة أو نسيها، ثم فزع إليها فليصلها كما كان يصليها في وقتها»، ثم التفت رسول الله ﷺ إلى **أبي بكر الصديق** فقال: **«إن الشيطان أتى بلالا وهو قائم يصلي فأضجعه فلم يزل يهدِّئه كما يهدأ الصبي حتى نام»**، ثم دعا رسول الله ﷺ بلالا، فأخبر بلال رسول الله ﷺ مثل الذي أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال **أبو بكر**: أشهد أنك رسول الله [٥٩].

ومن المعسكرات المؤقتة: أماكن الخلوات التي يستفرد فيها الشيطان بالعبد فيصرعه بإيقاعه في الذنب، وتتحول أماكن الخلوات عندها إلى مجازر يُذبح فيها الإيمان، ومواضع هزيمة في مواجهة الشيطان.

٧. الأسر:

قال تعالى:

﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩] .

استحوذ على الشيء: استولى عليه وجعله لنفسه وغلَبَه، وهذا الاستحواذ هو عين الأسر. قال ابن القيم:

(العاصي دائما في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالا من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟) [٦٠] .

ولو كُشف لنا الحجاب لرأينا الشيطان يركب بعض الخلق كما يركب أحدنا بعيره، ويصرِّفه كيف شاء آناء الليل وأطراف النهار.. هي عملية أسر كاملة الأركان:

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ .

---

(٥٩) صحيح: رواه الطبراني والحاكم عن زيد بن أسلم كما في مشكاة المصابيح رقم: ٦٨٧.
(٦٠) الجواب الكافي ص ٧٩.

شبهة مردودة

وليس هذا لقوة الشيطان بل لضعف الإنسان، فليس للشيطان تلك القدرة الخارقة التي يستطيع بها أن يجبر الإنسان على ترك الطاعة وفعل المعصية، وليس له سلطان يقهر به العبد على فعل ما يريد، لأنه بذلك يكون مشاركا لله في القدرة على قهر العباد وإجبارهم على ما يشاء، ولو كان للشيطان مثل هذا لكان في ذلك مناقضة لتكليف الله للبشر، ومخالفة لصريح القرآن، لأن التكليف قائم على حرية الإنسان في الاختيار بين الخير والشر، وإذا انتفى الاختيار عند الإنسان – **بسبب إجبار الشيطان له على فعل المعاصي وترك الواجبات** – لكان في ذلك بطلان التكليف والاختبار.

بما قدّمت يداك!

قال تعالى في هذا الشأن حاكيا عن الشيطان:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهذا الأسر اختياري للعبد، فإن عصمة العباد من الشيطان أو وقوعهم تحت سلطانه راجع إلى سابق عملهم، فالتحرر من قيد الشيطان لا يكون إلا لعباد الله المخلصين كما قال ربنا: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، والوقوع تحت سيطرة إبليس وقيده تكون لمن سلف منه الكفران، ولذا قال ربنا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

ويقع الاستحواذ والأسر كذلك لمن قدَّم العصيان، فتكون منه الزلة التي أودت به وأوقعته في ذل القيد والهوان. قال رسول الله ﷺ:

«ما من ثلاثة في قرية لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان»[٦١].

(٦١) رواه أحمد عن حسن أبي الدرداء كما في مسند أحمد رقم: ٢١٧١٠.

عملية تحرير!

يا من أمره ربه بالتَّقوى فقال لا أقوى !

يا من سُلِب أعظم نعمة وَلم يشعر بسَلْبِه

يا مُصِرًّا على ذنبه ..

يا سادرا في غيِّه ..

شكت صحيفتك قلة الحسنات

وخلا صدرك من تعظيم الحرمات

ولذا تخلت الملائكة عن نصرتك

واستحوذ عليك الشَّيطان سعيا في هلكتك

فيا من سباه عدوه ففرح !

وساقه إلى حفرة الجحيم بما اجترح ..

هلا تحصَّنت بالحصن الحصين .

ولُذت بجناب القوي المتين .

واستمسكت بالعروة الوثقى لهذا الدين .

وقاتلت تحت لواء رسول اللّه،

بدلا من لواء الشيطان اللعين .

واستنقذت من أسر الأبالسة إخوانك المأسورين ..

هيا..

قبل أن يفرُط الأَمر ..

ويخرب الْقصر ..

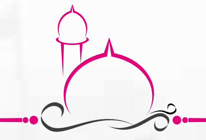
وتسكن القبر ..

ويكون مصيرك إلى حفرة هي جنة أو جمرة !

هل تلحق القطار ..

أم يفوتك فتكون من أصحاب النار ؟!

أسرع !





٨. وقت المعركة:

قال رسول الله ﷺ:

«ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهِلُّ صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم و أمه» (٦٢) .

قال القرطبي:

(هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط، فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦] .. **ولم يكن لمريم ذرية غير عيسى)** (٦٣) .

بل تبدأ المعركة قبل الولادة بشهور!! وذلك عندما يأتي الرجل أهله.

قال رسول الله ﷺ :

«لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله: بسم الله اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن قضي بينهما ولد من ذلك لم يضُرَّه الشيطان أبدا » (٦٤) .

فالمعركة منذ النطفة المقذوفة في الرحم، يأتي الشيطان للوالد وينسيه ذكر الله ليلتقط الطفل ويستلمه وهو لا يزال بعدُ نطفة!!.

الشيطان لا يعرف اليأس إليه سبيلا، فيظل مواصلا إغواءك حتى ساعة الاحتضار، فلن تضع هذه الحرب أوزارها إلا بمعاينة وجه ملك الموت ومغادرة رحلة الحياة، وغرضه أن يظفر منك بما يئس من تحصيله طوال

(٦٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٨٥.
(٦٣) فتح الباري ٦/٤٧٠ – ط دار المعرفة.
(٦٤) صحيح: رواه أحمد والشيخان عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٤١.

حياتك، ألا وهو التوحيد وأن تموت على الإسلام، وفي استبسال منقطع النظير يسعى لانتزاع نصر اللحظة الأخيرة مستغلا أنك في أضعف ما تكون وهو أقوى ما يكون، حيث يدرك أنها فرصته الأخيرة، وأنك على وشك الإفلات من يديه.

وقد يكون مشهد المعركة الأخير على أرضك أو أرض عدوك.

على أرضك:

في مسجد مبارك أو أرض جهادٍ مقدَّس أو غزوة دعوية مباركة، فيُختم لك بخير خاتمة، لتحرز النصر في آخر جولات الصراع، والمعارك بخواتيمها!!

أو أرض عدوك:

في حانة خمر .. أو جوار ظالم .. أو أرض مغصوبة .. لتكون الخسارة التي لا عوض عنها، والسقطة التي لا قيام منها.

ولذلك علمنا النبي ﷺ دعاء يحمينا من خاتمة السوء، فعن أبي اليسر قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم والغرق والحريق، وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا، وأعوذ بك أن أموت لديغا**»[٦٥].

وفي جعبتي مثالان واضحان يبرزان خطورة الخاتمة واستبسال الشيطان للفوز بها وبالضربة القاضية:

- أحمد بن حنبل:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: (حضرت أبي الوفاة، فجلست عنده وبيدي الخرقة

(٦٥) النسائي: ٥٥٣١ أبو داود: ١٥٥٢.

وهو في النزع لأشد لحييه، فكان يغرق حتى نظن أن قد قضى، ثم يفيق ويقول: لا بعد .. لا بعد .. بيده ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت إيش هذا الذي قد لهجت به في هذا الوقت؟! فقال لي: يا بني .. ما تدري، فقلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قام بحذائي عاضا على أنامله يقول: يا أحمد .. فُتَّني وأنا أقول لا بعد حتى أموت!!)[٦٦].

• أخو أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي:

قال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي: (حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر، فقيل له: قل لا إله إلا الله. فكان يقول: لا لا، فلما أفاق ذكرنا له ذلك فقال: «أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي يقول أحدهما: مت يهوديا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانيا، فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا لا .. إليّ تقولان هذا؟!)[٦٧].

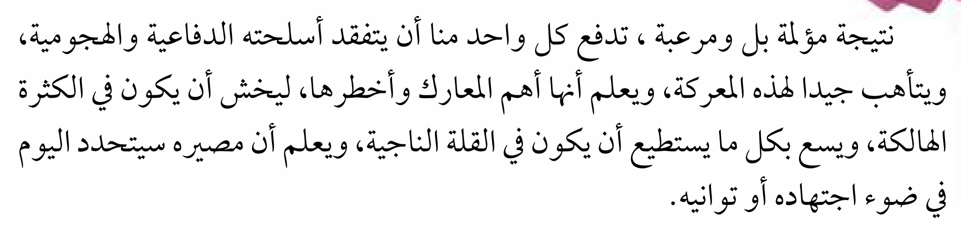
وهؤلاء الناجين هم من أحزنوا الشيطان وهزموه حتى أبكوه، فاقد رُوِي عن بعض الصالحين قوله:

«الشَّيطان أشدُّ بكاءً على المؤمن إذا مات مِنْ بعض أهله لما فاته من افتتانه إيَّاهُ في الدُّنْيَا»[٦٨].

٩. نتيجة المعركة :

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «يقول الله تعالى : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك، والخير كله في يديك . قال : أخرج بعث النار. قال : وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾».

(٦٦) حلية الاولياء ٩/١٨٣.
(٦٧) التذكرة للقرطبي.
(٦٨) مكائد الشيطان ١/ ٥٢.



نتيجة مؤلمة بل ومرعبة ، تدفع كل واحد منا أن يتفقد أسلحته الدفاعية والهجومية، ويتأهب جيدا لهذه المعركة، ويعلم أنها أهم المعارك وأخطرها، ليخش أن يكون في الكثرة الهالكة، ويسع بكل ما يستطيع أن يكون في القلة الناجية، ويعلم أن مصيره سيتحدد اليوم في ضوء اجتهاده أو توانيه.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] .

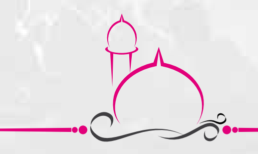
(**والاحتناك :** وضع الراكب اللجامَ في حَنَك الفرس ليركَبه ويَسيّره ، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مواضع الفساد والإغواء بتسيير الفرس على حُبِّ ما يُرِيد رَاكِبه)(٦٩) .

والمعنى:

لأقودنهم إلى المعاصي والمهالك كما تُقاد الدابة بحنكها رغما عنها، وهو قمة التسلط، وعلامة الغطرسة والثقة بالنفس، والاعتداد بقوة المكر وفاعليته.

ومعنى آخر:

لأَستأصلنَّهم. يُقال: احْتنك الجرادُ ما على الأرض : إذا أكله؛ واحتنك فلانٌ ما عند فلان من العلم إذا استقصاه، فالمعنى : لأستأصلنهم بالإغواء، ولأهلكنهم بالعصيان، وسأقضي على قلوبهم بالموت، وعلى إيمانهم بالذبح.



(٦٩) التحرير والتنوير ١٥/١٥٢.





الفصل الثالث

اعرف عدوك !!



الفصل الثالث



تحليل قدرات العدو

فإنه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه ، وعرف طرقه التي يأتيه منها، وجيشه الذي يستعين به عليه، فكل من غفل عن عدوه .. استهان بقدرات عدوه ..جهل عدوه .. انهزم.

والشيطان متخصص في إغوائنا، منشغلٌ فقط بتضليلنا، لا يشغله شيء آخر عن دفعنا إلى عصيان الله ومخالفة أمره، وهذا ما يوجب تمام اليقظة وكامل الوعي بضراوة عداوة الشيطان للإنسان. فلنكن على أهبة الاستعداد، ثم دراسة نقاط قوته وقدرته.

إن معرفة قدرات العدو هو أسهل طريق إلى هزيمته ونزع فاعلية أسلحته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] ، والشيطان أكبر المجرمين، وهو مخوَّل باستخدام كل وسائل الخداع والكذب في هذه المعركة، فهي مسألة حياة أو موت بالنسبة له، فإما أن يضلَّك وإما أن يُلقى به وحيدا في جهنم.

قال ابن عباس وهو يبين أحد أسلحة الشيطان القذرة التي استخدمها مع أبينا آدم وأمنا حواء: **(غرَّهما باليمين، وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا، فغرَّهما بوسوسته وقَسَمه لهما)** [(٧٠)] .

- ### يرانا ولا نراه:

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ [الأعراف:٢٧] ، وقوله : ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ جاء في موضع التعليل وذكر السبب، فبعد أن نهى الله عن الافتتان بالشيطان بيَّن أن من معالم قوة الشيطان أنه يرى البشر بينما هم لا يرونه، ومن علم هذا فعليه أن يكون شديد الحذر، وشأن الحذِر أن يرصد

---

(٧٠) تفسير القرطبي ٧/ ١٨٠.



ما يخافه إذا رأى بوادره، فأخبر الله بهذه القدرة الشيطانية تحذيرا لعباده، وإظهارا للتفاوت الكبير بين كيد عدوهم وقلة حذرهم، حيث يباغت ضحاياه من حيث لا يحتسبون.

قال مطرف بن عبد الله:

(لو أن رجلا رأى صيدا والصيد لا يراه فختله، ألم يوشك أن يأخذه. قالوا: بلى. قال: فإن الشيطان يرانا ونحن لا نراه وهو يصيب منا) (٧١) .

ومادمنا لا نراه، فإننا لا نستطيع أن نعرف الجهة التي سيأتي منها أو الباب الذي سيدخل علينا منه، ولو رأيت الشيطان في هيئته الشيطانية وهو يوسوس لك لانتفضت حذرا من كيده وتخلصا من شره، لكنه الغيب الذي اختبرنا الله به، وجعله فاصلا بين الإيمان والكفر، وحاسما في النجاة أو الهلاك.

وقد تلعب دورا خطيرا فتكون شريكا للشيطان، وذلك إذا عصيت ربك وتماديت في العصيان، وبذلك تتابع ذنوبك ويُظلم على إثر ذلك قلبك، فتكون قد ساعدت عدوك على التخفي وخفة التسلل دون أن تشعر، فاسوداد القلب يساعد اللص أيما مساعدة في ليلة غابت فيها أقمار الهداية، ليسرق الكنز في سهولة ويسر، وينتهب من بضاعة الإيمان كيف شاء، ولو أسرجت مصابيحك تاليا آيات ربك في الظلم .. ساكبا عبراتك في جوف الليل من الوجل لما قدر لص على الاقتراب وإلا افتضح!!

أخي المسرف على نفسه ..

نور قلبك أنت أطفأته ..

ظلامه أنت أوجدته ..

فكيف تلوم شيطانا سرق، ولا تلوم من مهَّد له الطريق !!

القلوب المظلمة أحبتاه .. هي أسهل القلوب التي يغزوها الشيطان وأكثرها، وكلما أظلم القلب كلما كثرت جراحات الشيطان فيه، واستمر تردُّده عليه.

---

(٧١) حلية الأولياء ٧/ ١٧٩.

اختبر قلبك!

لابس الثوب الأسود لا يجزع من وقوع الحبر عليه، وكذلك صاحب القلب الأسود لا يأبه بتسلل الذنوب إليه.

أما المؤمن المستغفر .. الأواه المنيب .. فهو الذي يلمح الشيطان ببصيرته ويحس به فور أن يتسلل، فيصرخ مستعيذا بالله مستجيرا به، قابضا على يد السارق ليقطعها، ولهذا استحق مدح ربه وثناءه عليه في محكم التنزيل:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف:٢٠١] (٧٢) .

وفي الآية تصوير بليغ لمحاولة إبليس إضلال بني آدم، فهو يطوف حولهم طواف النازل بالمكان قبل دخوله، حتى إذا لمح منهم حالة غفلة وإعراض نزل بهم، فوسوس إليهم وقذف في قلوبهم في نفوسهم خواطر المعاصي والسيئات.

طواف الشياطين ينشدون به ثغرة في أسوار القلعة ينفذون من خلالها.

---

(٧٢) وفي الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ ست فوائد:

الفائدة الأولى: دلَّ على أن الأصل عند المتقين هو وجود السلامة، وأن الطيف الشيطاني أمر عارض وسحابة صيف عابرة.

الفائدة الثانية: ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ ﴾ فطيف الهوى لا يتمكن من قلوبهم، بل يماسها مماسة، ولا يتمكن منها كما يستحوذ الشيطان على الكافرين، لكنه يختلس اختلاسًا من قلوب المؤمنين، حتى تنام العقول الحارسة للقلوب.

الفائدة الثالثة: الإشارة هنا بالطيف لأن الشيطان لا يمكنه غزو القلوب اليقظة، وإنما يورد طيف الغفلة والهوى على القلوب الغافلة، ومن لا نوم له فلا طيف عليه.

الفائدة الرابعة: تذكَّروا ولم يقل ذكروا، إشارة إلى أن الغفلة لا يطردها ذكر اللسان مع غفلة القلب، إنما يطردها فقط تذكر القلب واعتباره،و الشيطان حين يستهدف القلب بطيف الهوى، فإن ذكر اللسان وحده لا يطرده، بل وحده التذكر الذي يحل محله ويطرده من القلب.

الفائدة الخامسة: وحذف متعلق﴿ تَذَكَّرُوا ﴾، فلم يقل تذكروا الجنة أو النار أو العقوبة، لاختلاف ما تذكروه بحسب تقواهم، فتقوى كل واحد تناسب ما تذكره؛ فمِن متذكِّر للثواب، وآخر للعقاب، وثالث يستحي من سابق الإحسان، ورابع يتذكر قرب الله -تعالى- منه ونظره إليه، وخامس يتذكر عهده مع الله، وسادس يتذكر زوال لذته وبقاء عقوبته، وهذا كله مشمول بقوله: ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ .

الفائدة السادسة: ورود الطيف الشيطاني عليهم، لا يخرجهم من ثبوت حكم التقوى لهم، وجريان اسم المتقين عليهم، إذا كانوا كما وصفهم مسرعين بالتذكر راجعين إلى الله بالتبصر، وهذا من فضل الله ورحمته على عباده.

ثغرة في لحظة غفلة مختلسة ..

أو شهوة استحكمت ..

أو انقطاع عن صحبة خير ..

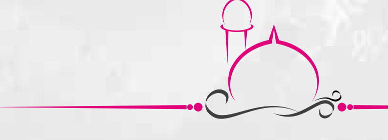
أو فتور إيماني عابر ..

أو غارة دنيوية على القلب ..

وإن الطاعة تنير القلب حتى يفيض نورا؛ فإذا دنا منه شيطان أصابه من النور ما يحرقه، فيفرُّ الشيطان من هذا القلب فراره من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرعُ الشيطان، فيخِرُّ صريعا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسيّ، وبه نظرة من الأنس!

ويبقى دعاء **محمد بن واسع** -الذي كان يدعو به كل يوم بعد صلاة الصبح- خير عاصم:

(اللهم إنك سلَّطتَ علينا عدوًا لنا بصيرا بعيوبنا، مطلعا على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه .. اللهم فآيسه منا كما آيستـهَ من رحمتك، وقنِّطه منا كما قنَّطـته من عـفوك، وباعـد بيننا وبينه كما باعـدت بينه وبين مغفرتك وجنتك.. إنك على كل شيء قدير) [٧٣].



(٧٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٧.

اللص الخفي!!

ما أبرع الشيطان في السرقة والاختلاس عن طريق الغارة المباغتة. والسرقة نوعان:

السرقة المادية

الشيطان لص يسرق أموال الناس، فقد جاء في الصحيح أن الشيطان سرق من بيت مال المسلمين وجعل يحثو فيه من الطعام، فأمسك به **أبو هريرة** ﷺ وكان مسئولا عن حراسة بيت المال، وما أطلقه إلا بعد أن أخبره بسلاح وقائي رادع يستعين به على مقاومته وهو آية الكرسي.

وقد يكون النهب مما سقط سهوا من ابن آدم، فعن **جابر** ﷺ: قال رسول الله ﷺ:

«إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت لقمة أحدكم فليأخذها، وليُمِط ما كان بها من أذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة»[٧٤] .

وإذا أراد الشيطان أن يتناول طعامه استخدم أناسا لا يذكرون اسم الله على ما يأكلون ليقضي نهمته، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه استولى عليه، ولما حدث ذلك أمام عيني رسول الله ﷺ ضبط السارقَ متلبِّسا، وأمسك به بنفسه، واسمع القصة بتفاصيلها يقصُّها عليك **حذيفة**:

كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعامًا لم نضع أيدينا، حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنا حضرنا مرة طعامًا، فجاءت جارية كأنها تدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يدفع، فأخذ بيده، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يُذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحلَّ بها، فأخذتُ بيدها. فجاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به، فأخذتُ بيده، والذي نفسي بيده! إن يده**

---

(٧٤) تنبيه المغترين ١٠٢/١٠٣.



في يدي مع يدها» (٧٥) .

وهو رزق إبليس الذي قسمه الله له ولذريته من بعده، فقد قال رسول الله ﷺ مخبرا عن الحوار الذي جرى بين الله جل جلاله وبين عدو الله إبليس:

«قال إبليس: كل خلقك بيَّنتَ رزقه؛ ففيم رزقي؟ قال: في ما لم يُذكَر اسمي عليه» (٧٦).

السرقة الإيمانية

سمى النبي ﷺ الالتفات في الصلاة اختلاسا، فقال:

«هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» (٧٧) .

قال الطيبي:

(سُمِّي اختلاسا تصويرا لقبح تلك الفعلة بالمختلس لأن المصلي يقبل عليه الرب سبحانه وتعالى، والشيطان مترصد له ينتظر فوات ذلك عليه، فإذا التفت اغتنم الشيطان الفرصة فسلبه تلك الحالة) (٧٨) ، والصلاة أغلى كنز، فهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، لذا كانت جديرة باهتمام الشيطان، وتحتل رأس أولويات وجدول أعماله!

بل خصَّص إبليس لها كتيبة شيطانية خاصة يقودها الشيطان خنزب (٧٩) .

وحين نجحت مهمة خنزب مع رجل يصلي فاته الخشوع وأخذ يعبث بالحصى أثناء صلاته، قال له عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

---

(٧٥) رواه مسلم في صحيحه حديث رقم: ٢٠١٧ في باب الطعام والشراب واحكامها .
(٧٦) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٧٠٨.
(٧٧) صحيح: رواه البخاري وأحمد والنسائي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٤٧.
(٧٨) فتح الباري ٢/٢٣٥.
(٧٩) شكا عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه ما يجد من الوسواس في الصلاة إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يُلبسها عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: **ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا** . قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني . رواه مسلم .

(لا تحرِّك الحصى وأنت في الصلاة، فإن ذلك من الشيطان) (٨٠) .

ولقد أبان ابن القيم هذا الدور للشيطان في نهب الإيمان مع تبيين أهم القلوب المعرَّضة للسلب والعدوان، حين قال:

(الشيطان لص الإيمان، واللص إنما يقصد المكان المعمور، وأما المكان الخراب الذي لا يرجو أن يظفر منه بشيء فلا يقصده) (٨١) .

وهو ما حدث مع صاحب العلاء بن زياد حين شكى للعلاء ما يجد في صدره من الوسوسة، فقال له العلاء:

(إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يَمُرُّ به اللصوص، فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه) (٨٢) .

فاحمد الله أن عندك ما يستحق السرقة، فغيرك بيوتهم خاوية أقصد قلوبهم، وليس أخرب من قلوب اليهود الذين زعموا يما أنه لا يوسوس لهم في صلاتهم، فقال فيهم ابن عباس:

(وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟!) (٨٣) .

وبقيت كلمة:

إن كان رصيدك الإيماني لا يكفيك لخوض فتنة أو التعرض لإغراء أو انفرادٍ بالشيطان، فاعلم أن نفاد الرصيد يعرِّضك للسقوط الحتمي في الذنب، فأعِد ملأ قلبك بالإيمان وشحن رصيدك بالقرآن تعصم نفسك من الزلل والامتهان!!

---

(٨٠) صحيح: رواه أبو داود عن ابن عمر كما في صحيح أبي داود رقم:٩٠٧.
(٨١) طريق الهجرتين ٢٤٣/١.
(٨٢) الإحياء ٢٣٠/٢ .
(٨٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٢٥/١.



• خُلِقَ قبل خلق آدم:

قال النبي ﷺ:

«لما صوَّر الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام تركه، فجعل إبليس يطوف به ينظر إليه، فلما رآه أجوف قال: ظفرتُ به .. خلقٌ لا يتمالك» (٨٤) .

قال المناوي في معنى قوله (**لا يتمالك**):

(أي لا يملك دفع الوسوسة عنه، أو لا يتقوى بعضه ببعض، ولا يكون له قوة وثبات، بل يكون متزلزل الأمر، متغير الحال، مضطرب القال، معرضًا للآفات، والتمالك: التماسك. أو لا يتماسك عن ما يسدُّ جوفه، ويجعل فيه أنواع الشهوات الداعية إلى العقوبات، فكان الأمر كما ظنه) (٨٥) .

ولا شك أن توافر فرصة كهذه لإبليس للتأمل في آدم والطواف حوله أول ما خُلِق، لهي فرصة ذهبية سانحة أتاحت له التعرف على نقاط ضعف خصمه منذ البداية، وكانت بمثابة عملية جمع معلومات مبكِّرة قام بها ألد الأعداء، ثم استغلها جيدا في عمله الإغوائي بعد ذلك.

• لا ينام:

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد!! أينام الشيطان؟! فتبسم وقال:

(لو نام لاسترحنا) (٨٦) .

وعدم النوم فيه إشارة إلى عدم تعبه من كثرة الكد والعمل واستحالة أن يتسلل إليه الكسل.

---

(٨٤) صحيح: رواه مسلم كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢١٥٨.
(٨٥) فيض القدير ٥/٢٩٧
(٨٦) إحياء علوم الدين ٣/٣١.

كان أبو هريرة ﷺ يتعوَّذ في سجوده أن يزني أو يسرق أو يكفُر أو يعمل كبيرة من الكبائر، فقيل له في تعجُّب: أتخاف ذلك؟ فقال:

(ما يؤمِّنني وإبليس حي، ومصرِّف القلوب يصرِّفها كيف يشاء!) (٨٧) .

ولأنه لا ينام فلا يهدأ حتى في أوقات نومك، بل يظل عاملا مجدًّا، محاربا لك حتى في غياب وعيك، غير مضيِّع فرصة واحدة ليستفرد بك، أو يلعب بك في منامك كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال:

«إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدِّث به الناس» (٨٨) .

ولعب الشيطان بك في منامك عن طريقين:

◎ حلمٌ يُحزنك:

في الحديث:

«الرؤيا ثلاثة: منها تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهُمُّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة» (٨٩) .

وفي هذه الحالة يوصيك رسول الله ﷺ فور فزعك من نومك أن تتعوَّذ بما يلي:

«إذا فزع أحدكم من النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون. فإنها لن تضره» (٩٠) .

ثم علَّمنا:

«والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئا يكرهه، فلينفُث حين يستيقظ عن يساره

(٨٧) البداية والنهاية ٨/١١٩.
(٨٨) صحيح: رواه مسلم وابن ماجة عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٨٨ .
(٨٩) صحيح: رواه ابن ماجة عن عوف بن مالك كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٣٤.
(٩٠) حسن: رواه الترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠١.

ثلاثا، وليتعوَّذ بالله من شرِّها، فإنها لا تضرُّه» (٩١) .

ذلك أن مِن أمضى أسلحة الشيطان: الحزن، فليس شيء أفرح للشيطان من إيقاع الحزن في قلوب المؤمنين، فحزنهم فرحته، وبكاؤهم قهقهته، (**وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن. قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، **فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره)** (٩٢) ، والحل في مواجهة هذا الحلم حاضٌر بين ثنايا الاستعاذة والتحول والكتمان والصلاة.

قال رسول الله ﷺ:

«.... فإذا رأى أحدكم رؤيا تُعجِبه فليقصَّها إن شاء على أحد، و إن رأى شيئا يكرهُه فلا يقصُّه على أحد، وليقُم يصلي» (٩٣) .

وقال في موضع آخر يوصي فيه الرائي بثلاث وصايا:

«إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا،

وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا،

وليتحول عن جنبه الذي كان عليه» (٩٤) .

والشيطان إذا لم يتمكن من الوسوسة عند النوم يبيت على أقصى الأنف ليُلقي في دماغه الرؤى الفاسدة، ويحول بينه وبين الرؤى الصالحة كما جاء في الحديث:

«إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثا، فإن الشيطان يبيت على خيشومه» (٩٥) .

---

(٩١) صحيح: رواه الشيخان وأبو داود عن أبي قتادة كما في صحيح الجامع رقم : ٣٥٣١ .
(٩٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ٢٧٩/١.
(٩٣) رواه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٣٣.
(٩٤) صحيح: رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥١.
(٩٥) صحيح: متفق عليه من حديث أبي هريرة كما في مشكاة المصابيح رقم: ٣٩٢.

ومبيته ليس لعموم النائمين بل هو خاص بمن لم يجعل على نفسه حراسة مشددة قبل منامه بقراءة آية الكرسي وأذكار النوم بحضور قلب واستحضار معانيها.

وهناك توجيه مضاد إلى مقاومة استيلاء الشيطان بالذكر والطهارة، واستدعاء مَلَك يحرسك ويؤويك، وذلك كما أوصاك الحبيب وأرشدك:

«من بات طاهرا بات في شِعاره ملَكٌ لا يستيقظ ساعة من الليل إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلانا، فإنه بات طاهرا » [٩٦] .

◎ حلمٌ يشغلك :

وقد يلعب الشيطان بك في منامك فيوقد شهوتك ويحرِّك غريزتك، ولعل ذلك كان نتيجة لا ابتداءً، كأن يكون عقوبة على ذنب فعلته.

قال أبو سليمان الداراني:

(الاحتلام عقوبة، وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال) [٩٧] .

لكن عقوبة على ماذا؟ وماذا جنى أبو سليمان حتى يُعاقب؟!

اسمع إليه بعد أن استرجع شريط ذكرياته يقول:

أقمتُ عشرين سنة لم أحتلم، فدخلتُ مكة فأحدثت بها حدَثا، فما أصبحت حتى احتلمت، فقلت له: فأي شيء كان ذلك الحدث؟! قال: **(تركتُ صلاة العشاء في المسجد الحرام في جماعة، والاحتلام عقوبة)** [٩٨] .

---

(٩٦) صحيح: أخرجه عبد الله بن المبارك وابن عدي وابن حبان كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٥٣٩.
(٩٧) الإحياء ٣/٨٦.
(٩٨) صفة الصفوة ٤/ ٢٢٨.



- التجسد في صورة البشر:

وانظروا كيف تجسَّد الشيطان في صورة بشر، وهو يلجأ **لهذا** حين لا يجد من أعوانه من الإنس من يؤدي المهمة الإفسادية ويسد الثغرة، فيتدخل عندها بنفسه، وانظر إليه في المواقف الحاسمة من تاريخ الرسالة النبوية على سبيل المثال لا الحصر: كيف تربَّص بها في سبيل استئصال شأفتها والقضاء عليها في مهدها، ولو اضطره ذلك إلى أن يغيِّر هيئته ويظهر في غير صورته، وهاك الأمثلة:

الشيخ النجدي في واقعة الهجرة:

هو الشيخ النجدي الذي حضر دار الندوة، ليسمع الآراء المتباينة في كيفية القضاء على دعوة الله والتعامل مع رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا، وقال قائل: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، حتى قال أبو جهل بن هشام: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم، فقال الشيطان الذي تجسد في صورة الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل .. هذا الرأي ولا رأي غيره!! فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له، فأتاه جبريل، فقال له: **لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه**.

صرخة شيطان العقبة:

في بيعة العقبة الثانية لما أخذ النبي ﷺ البيعة من أصحابه، اغتاظ الشيطان وقد هاله أن دولة الإسلام يوضع أساسها ويعلو بنيانها، فصرخ بأنفذ صوت سُمِع قط .. صراخا سمعه أهل منى: يا أهل الأخاشب (منازل منى) .. هل لكم في محمد والصُّباة معه .. قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أزب العقبة، أي شيطان العقبة، ثم أمر أصحابه بالتسلل إلى رحالهم ليبطل كيد الشيطان ورغبته في القضاء على عصابة التوحيد ضربة واحدة.

صورة سراقة بن مالك يوم بدر:

لما عزمَتْ قريشٌ على الخروج إلى بدر ذكروا ما كان بينهم و بين كنانة من الحرب والدماء، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك الكناني المدلجي، و كان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا.

فلما نزلت الملائكة رآه عمير بن وهب أو الحارث بن هشام حين نكص على عقبيه، فتشبَّث به وهو يرى أنه سراقة بن مالك، فقال: إلي أين سراقة!! أين تفر؟! فلكمه لكمة طرحه على قفاه ثم قال: إني أخاف الله رب العالمين.

ويُروى أن المشركين رأوا سراقة بمكة بعد ذلك فقالوا له: يا سُراقة!! أخَرَمْت الصف وأوقعت فينا الهزيمة؟ فقال: والله ما علمت بشيء من أمركم حتى كانت هزيمتكم، فما صدَّقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله، فعلموا أنه كان إبليس تمثَّل لهم.

وصاغها حسان بن ثابت شعرا فقال:

دلَّاهم بغرورٍ ثم أسلمهم ... إنَّ الخبيث لمن والاه غرَّارُ

صرخة الشيطان المفزعة يوم أحد:

وأراد بث الرعب والفزع في قلوب الصحابة في أحد.

قال الزهري: صاح الشيطان يوم أحد : قُتِل محمد!! فانهزم جماعة من المسلمين. قال **كعب بن مالك**: فكنت أول من عرف رسول الله رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتي: هذا رسول الله !! فأومأ إليَّ أن اسكت.

ومن هنا يتضح أن الشيطان لا يؤازر أعداء الله بوسوسة وإغواء فحسب، بل مؤازرة مادية واضحة، كتفا بكتف، وقدما بقدم.

• معرفة بعض الغيب:

تنزل الشياطين على الكهنة والعرافين في اتفاقية مشتركة خاصة، وبمقتضى هذه الاتفاقية يزوِّد الشياطين الكهان بما يسترقونه من أخبار الغيب، ويقوم الكهنة والعرافون باستعمال هذه الأخبار في إفساد العباد وتضليلهم، بأن يزيدوا على خبر الصدق أضعافا مضاعفة من الكذب؛ وفي الصحيح أن النبي ﷺ: سئل عن الكُهَّان؟ فقال: (**ليسوا بشيء، قيل: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا، فقال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقرها في أذن وليه قرَّ الدجاجة، فيخلطون عليها أكثر من مائة كذبة**)[٩٩].. فيَقُرُّها: من القر وهو ترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه .

وفي حديث آخر بيَّن النبي ﷺ أن كتيبة انتحارية من الشياطين ملقَّبة بكتيبة (**مسترقوا السمع**)، تستبسل في سبيل الوصول إلى هذا الخبر الغيبي الثمين، وهي تعلم مسبقا أن الهلاك ينتظرها والإحراق مصيرها، ومع ذلك لا تبالي إن لقي بعض أفرادها حتفهم أثناء تلك المهمة!! إنها التضحية في سبيل الباطل تستدعي من حملة لواء الحق الاستبسال في سبيل الحق، وشجاعة أهل الإيمان في مواجهة شجاعة الشيطان، فقال ﷺ مخبرا عن أول شيطان في الكتيبة بدأ استراق السمع: (**فيسمع الكلمة فيُلقيها إلى من تحته، ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يُلقيَها، وربما ألقاها قبل أن يُدرِكه، فكذب معها مائة كذبة، فيُقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا ؟ فيُصَدَّق بتلك الكلمة التي سُمِعت من السماء**)[١٠٠] .

ومن هذا ما قاله ابن تيمية حين ضرب أمثلة لمن عاونهم الجن في إفسادهم وضلالهم:

(**والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه، وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من**

---

(٩٩) صحيح : متفق عليه من حديث عائشة كما في مشكاة المصابيح رقم : ٤٥٩٣

(١٠٠) صحيح : صحيح البخاري رقم : ٤٧٠١



الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون)[١٠١] .

- ## خبرات إبليس متراكمة وطويلة:

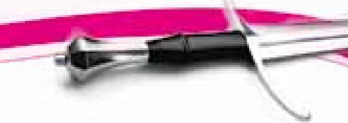
في مجتمع الأبالسة تبادل الخبرات وانتشار المعلومات، وذلك عبر الأجيال المتعاقبة على مدار الأزمان، وقد مرَّ بك أمه يجتمع مع جنده آخر كل يوم يسألهم عما أغووا وأضلوا، فيسمع بعضهم من بعض، ويؤازر بعضهم بعضا، وهذا من لدن آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

- كيف زيَّن لقابيل قتل أخيه؟!
- كيف أغرى صحابيا شهد بدرا كحاطب بن أبي بلتعة أن يفشي سر رسول الله ﷺ للكفار!!
- كيف أغوى مسلما ليقتل أمثال العمالقة عمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز؟! ويقتل حديثا أمثال حسن البنا والملك فيصل؟!
- كيف جعل أصحاب الْمُثل العليا والغايات النبيلة ينحرفون بمضي الزمن ومرور الأيام؟!
- كيف أغوى عابد بني إسرائيل ليزني ويقتل ثم يكفر؟!

كل هذه الخبرات مختزنة عند إبليس ومتوارثة جيلا من بعد جيل لتأخذ دورها في الإفساد والتضليل.

---

(١٠١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ١/١٦٨-١٦٩ ط: دار البيان. فائدة: ومن هذا القبيل ما يخبر به من يتصلون بالجن في الوقت الحاضر، حيث تخبرهم الجن عن بعض الوقائع التي تجري في أماكن بعيدة لا يراها الإنس، ولكنها مشهودة بالنسبة للجن، ووظيفة الجن في هذه الحالة نقل هذه الأمور إلى من يخدمونهم من الإنس مقابل طاعتهم لهم، ولذلك تجد كثيرا من الذين يتعاملون من الجن تاركين للصلاة، مهينين للقرآن، كأن يكتبوه بنجاسة، أو يقلبوا بعض الآيات القرآنية، أو يكتبوا بعض الطلاسم والأدعية غير مفهومة المعنى، مما يرضاه الجن الكفرة مقابل جلب سحر، أو منع شخص من زوجته، وغير ذلك مما هو مشاهد في كل عصر.



• يجري في دمك:

عن صفية رضي الله عنها:

«كان النبي ﷺ معتكفا في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فأتيتُه أزوره ليلا، وعنده أزواجه فرُحْن، فحدَّثتُه ساعة، ثم قمتُ لأنقلب، فقال: لا تعجلي حتى أنصرف معك، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد حتى إذا كان عند باب المسجد الذي عند باب أم سلمة، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ: على رسلكما إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله!! يا رسول الله. قال:

«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا أو قال : شيئا»[١٠٢] .

ومما مرَّ يتضح أن النبي ﷺ الشيطان عرف هذه القدرة الشيطانية، فلم يأمن على إيمان هذين الصحابيين، فقد يوسوس لهما إبليس ويلقي في قلوبهما السوء عن أطهر خلق الله، ولو حدث ذلك لكفرا!! لذا حِرص الرسول ﷺ على إبانة الأمر لهما لينجيهما من شر الشيطان اللعين، ولهذا قال القاضي عياض:

«ظن السوء بالأنبياء كفر»[١٠٣] .

إذن عدوك يجري في دمك، ليبسط سلطانه على كل الجوارح، فيؤثر فيها ويأمرها بما يهلكها، وليس أحد بمأمن من هذا الخطر، ولذا كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول:

(كيف ننجو مِنَ الشَّيطان وهو يجري منَّا مجرى الدَّمِ؟!)[١٠٤] .

---

(١٠٢) صحيح: أخرجه الشيخان وأبو داود وهو مخرج في صحيح أبي داود رقم: ٢١٣٣ و٢١٣٤

(١٠٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض٧/ ٦٣

(١٠٤) مكائد الشيطان ١/ ٦٠.

• معرفة نقاط ضعفك:

دخل الشيطان على آدم وحواء من نقطة ضعفٍ محَّددة كما أخبر بذلك تعالى : ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

يقول ابن القيم:

(فشامَّ عدو الله الأبوين، فأحس منهما إيناسا وركونا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنّه لهما لمن الناصحين، وقال : ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠])[١٠٥] .

فأول مدخل دخل به الشيطان كان حب الملك والخلود، وهو المرض نفسه الذي ابتليت به الأمة وهو الوهن، حب الدنيا وهو المُلك، وكراهية الموت وهو الخلود، فانظر كيف استمر المرض من لدن آدم إلى الآن.

ولذالك في قراءة ابن عباس والضحاك: ملِكين، بكسر اللام، ومما يعضد هذه القراءة قول الله تعالى:

﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه : ١٢٠] .

وضحت الخطة الآن!

درس الشيطان مداخل نفسِك بعناية بالغة، مستغلا بذلك جهلها وسعيها وراء الرَّغبات والشَّهوات، فاستطاع أن يتسلَّل عن طريق نقطة الضعف وفي غفلة منك ليحتلَّ قلعة القلب (الحصن الحصين)، ومنها يسيطر على سائر جسدك، ويخضع له جوارحك.

(١٠٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١١٢/١



قال ابن القيم:

(من كيد الشّيطان العجيب: أنّه يشامّ النّفس، حتّى يعلم أيّ القوّتين تغلب عليها: أقوّة الإقدام والشّجاعة أم قوّة الانكفاف والإحجام والمهانة.

وقد اقتطع أكثر النّاس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي.

والقليل منهم جدّا الثّابت على الصّراط الّذي كان عليه رسول الله ﷺ) [١٠٦] .

ومن كيد الشيطان العجيب أنه يستكشف النفس وميولها وما تحب مما يشكِّل نقطة ضعف والثغر الذي يلج إليه منه، **(فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك عَلّم إخوانه وأولياءَه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم البعض أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخلٍ منه، ومن رام الدخول من غيره، فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود)** [١٠٧] ، وله في هذا سكتان يسلكهما كما قال مخلد بن الحسين:

(ما ندب الله العباد إلى شئ إلا اعترض فيه إبليس بأمرين، ما يُبالي بأيهما ظفر: إما غلو فيه، وإما تقصير عنه) [١٠٨] .

وأنا أختار لكم بعض نقاط الضعف كما يلي:

في الهمة:

إن وجد فيك فتوراً وتوانيا ثبَّطك وأقعدك عن أبواب كثيرة من الخير، وفتح له باب الأعذار الواهية والتأويلات الفاسدة والرجاء الكاذب.

وإن وجد عندك نشاطا وجِدّا وتشميرا ونهضة، أمرك بالاجتهاد الزائد والغلو ومجاوزة الاعتدال حتى ينقطع نفَسك وتبرد همتك.

(١٠٦) إغاثة اللهفان ١/ ١١٥- ١١٦
(١٠٧) إغاثة اللهفان ١/ ١١٢
(١٠٨) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٣٦



وفي الكلام:

إن شمَّ من قلبك حب الكلام زيَّنه لك، ثم استدرجك من الكلام النافع إلى المباح، ثم قادك من المباح إلى الحرام بالوقوع في أعراض الناس والنيل منهم.

أما إن شمَّ منك إيثار الصمت قادك إلى السكوت الآثم عن المنكرات، وأمسك لسانك عن الكلام في موضع يحتاج فيه الناس إلى أي كلمة تدُلَّهم على الخير، مما يُعدُ هروبا من المسؤلية وتفلتا من أداء الواجب.

وفي المال:

إن لمح منك كرمًا أغراك بالتبذير والإنفاق في غير محله، وما وُجِد سرفٌ إلا وبجواره حقٌّ مُضيَّع.

أو الأخرى إمساكا يقود إلى بخل يؤدي إلى تضييع حقوق ونزع بركة.

إن رأى فيك الفقر وضيق ذات اليد زيَّن لك حسد صاحب النعمة والنقمة على أرباب الأموال، ثم زيَّن لك بعدها أن تمد يدك إلى الحرام تحت ستار كفاية الأهل والنفقة عليهم.

وإن رأى فيك الغنى أغراك بالمزيد، ولو من الحرام أو الربا، وكرَّه إليك النفقة، وضيَّق عليك الواسع، وضحك عليك بإنفاق الصدقات مع إمساك الزكوات وارتكاب الموبقات.

وفي الدنيا:

إن شمَّ منك الشَّرَه في طلبها وعقد المقارنات حسدا وبغيا فتح لك أبواب الحرام بين يديك، وساق لك الفتن تتراقص في عينيك ليجذبك إليه جذبا.

وإذا لمح منك الزهد زادك فقرا ورمى به في الأزمات ليشغل قلبك ويُذهب عقلك.



في الشهرة:

إذا لمح فيك حب ظهور وانتشاءك بالمدح حبَّب إليك الرياء والتصدي للمنابر والإقبال على الصدارة، ووضع ذلك كله في إطار نشر الدين وإنقاذ العالمين!!

أما إن لمح فيك حب الاستتار وكراهية الأضواء زاد ذلك وأنماه فيك حتى تؤثر العزلة، فلا تغشى مجامع الناس تهديهم، تخشى على نفسك الفتنة ومخاطر الرياء.

والنجاة في النجاة من كلتا الآفتين! قال الفضيل بن عياض:

(لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يُخبِر به من عمله .

لعله يكون كثير الطواف فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة!

أو يكون صائما فيقول: ما أثقل السحور أو ما أشد العطش.

إن كنت بليغا قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيُعجِبك ذلك فتنتفخ.

وإن لم تكن بليغا ولا حسن الصوت؛ قالوا: ليس يحسن يُحدِّث، وليس صوته بحسَن أحزنك وشقَّ عليك، فتكون مرائيا.

وإذا جلست فتكلمت، ولم تُبالِ من ذَّمك ومن مدحك من الله، فتكلم) (١٠٩) .

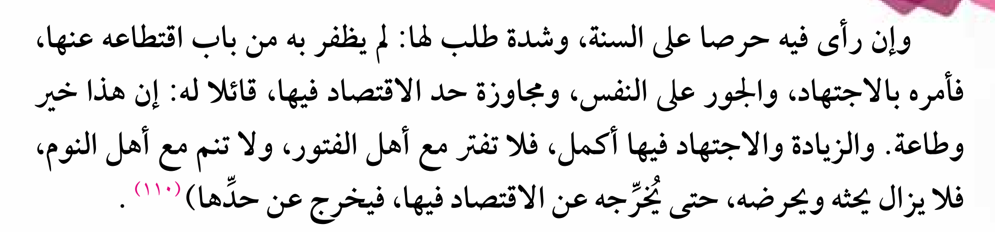
وفي البدعة:

يقول ابن القيِّم:

(فإن الشيطان يشُمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضا عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها.

---

(١٠٩) حلية الأولياء ٨/٩١



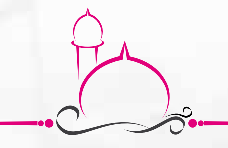
وإن رأى فيه حرصا على السنة، وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلا له: إن هذا خير وطاعة. والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتى يُخرِّجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدِّها)[(١١٠)] .

وفي الطاعات والمعاصي:

يدفع الشيطان العاصي إلى أن يحتقِر ذنبَه ويستصغره، والطائع إلى أن يستعظم طاعته ويُعجب بها، وكلاهما خطر داهم، والكل مستهدف لدى العدو بلا استثناء.

قال ابن القيِّم في المدارج:

(استقلال المعصية ذنب، واستكثار الطاعة ذنب)[(١١١)] .



(١١٠) مدارج السالكين ٢/ ١٠٨

(١١١) مدارج السالكين ١/ ٢٨٩





الفصل الرابـــع

مكائد الشيطان



الفصل الرابع



مكائد الشيطان

كيد الشيطان

وفي تعريف الكيد يقول النسفي:

(الكيد: السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال)(١١٢) .

وكيد الشيطان ضعيف لسببين:

الأول: أنه لا يملك قوة يقهر بها جسدا، ولا يملك حجة يقهر بها قلبا، وقهر (الجسد) أن تفعل الفعل وأنت كاره، كأن يتوعدك ويهدِّدك إن لم تفعل ليفعلن بك ما يسوؤك، أما قهر القلب فهو بالحجة والبرهان، والشيطان لا هو بالجبار الذي يقهرك على فعل شيء، ولا هو بصاحب الحجة البالغة التي تأسر روحك من غير إرغام، فلا قوة ولا حجة، ففيم انهزامك أمامه إذن؟!

الثاني: لأن الله ينصر أولياءه، والشيطان ينصر أولياءه، ولا شك أن نصرة الشيطان لأوليائه أضعف من نصرة القوي الجبار -سبحانه- لأوليائه.

قال ابن الجوزي مقارنا بين ولاية الشيطان وولاية الرحمن:

(والضعيفان إذا اقتتلا، ولم يكن لواحد منهُما معِين لم يظفر بِصَاحِبِه، فأمر الله الْإِنْسَان الضَّعِيف أَن يَسْتَعِين بالرب اللَّطِيف من كيد الشَّيْطَان الضَّعِيف ليعصمه مِنْهُ ويعينه عليه.

من كان في معونته الإله العظيم لم يضرَّهُ كيد الشَّيطَان الرَّجِيم..

من كان في معونته الملك الوهَّاب لم يضرّهُ كيد الشَّيطَان الكذَّاب..

من كان في معونته الملك القهار لم يضرّهُ كيد الشَّيْطَان الْفَرَّار..

من كان في معونته الملك الرَّحْمَن لم يضرّهُ كيد الشَّيْطَان)(١١٣).

---

(١١٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣٧٥/١ - النسفي - ط: دار الكلم الطيب، بيروت.

(١١٣) بستان الواعظين ورياض السامعين ٢٠/١- مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان.



الكيد في نفسه ضعف!

والكيد لا يُقبِل عليه إلا الضعيف، فيلجأ إلى إفساد حال الخصم بالاحتيال، كمن يدسّ السّم لآخر في القهوة لأنه لا يقدر أن مواجهته، أما القوى فهو يتأبى على فعل ذلك، والعرب تعرف ذلك جيدا، ولذا قالوا (**الحيلة تجري مجرى القوة**)، وقالوا: (**الحيل تفتح أبواب الجبل**)، وقالوا: (**ربّ حيلة أنفع من قبيلة**)، ولهذا قال ابن عباس:

إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه:

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] .

قال **مجاهد**:

(كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة ، فكنت أذكر قول ابن عباس، فأحمل عليه ، فيذهب عني)[١١٤] .

وأما هدف إعلامك بضعف كيد الشيطان فهو كما قال **أبو زيد الثعالبي**:

(وإعلامُهُ تعالى بضَعْفِ كيدِ الشيطانِ فيه تقويةٌ لقلوب المؤمنين، وتجرِئَةٌ لهم على مُقَارعة الكيد الضعيف فإنَّ العزم والحَزْم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهدُّه)[١١٥] .

ولذا قال **أبو حازم** مستخفا بقوة الشيطان ومكائده بعد أن تسلَّح بعُدَّة الإيمان:

(وما إبليس! والله لقد عُصِي فما ضَرَّ، ولقد أُطيع فما نفع)[١١٦].

---

(١١٤) فتح القدير: ١/ ٥٦٣ –محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني – دار ابن كثير ودار الكلم الطيب – دمشق، بيروت.

(١١٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٢/ ٢٦٢– أبو زيد الثعالبي – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(١١٦) حلية الأولياء :٣/ ٢٤٥.

المكيدة الأولى
النســـيان

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] .

نسي **آدم** عداوة إبليس وما عهد الله به إليه، وعلى دربه سار الورثة! قال **ابن عباس** رضي الله عنهما:

(إنما سُمِّي الإنسان لأنه عُهِدَ إليه فنسي) (١١٧) .

الأمر إذن في بعض جوانبه موروث عن أبينا آدم، فقد أخبر النبي ﷺ عن مشهد غاب عنا ولم نشهده، وذلك حين نثر الله لآدم ذريته أمام عينيه، «فقال:

أي رب..! ما هؤلاء !؟

قال : هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو مِن أضوئهم.

قال : يا رب من هذا؟!

قال : هذا ابنك **داود** وقد كتبت له عمر أربعين سنة.

قال : يا رب زِد في عمره.

قال : ذاك الذي كتبت له.

قال : أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة.

قال : أنت وذاك، ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها فكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت ..

(١١٧) جامع البيان في تأويل القرآن ١٨/ ٣٨٣ - أبو جعفر الطبري - مؤسسة الرسالة.



فقال له آدم: قد تعجلتَ!! قد كُتِبَ لي ألف سنة.

قال : بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة.

فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، فمن يومئذ أُمِر بالكتاب والشهود[118] .

واسمع:

«ونسي فنسيت ذريته»

لأن الولد من طينة أبيه، ونسيان العداوة يؤدي إلى الموالاة، وليس مجرد الموالاة بل الانتظام في صفوف جند إبليس، وأن تكون عميلا من عملائه. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨] .

أي إذا أنساك الشيطان نهينا لك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم حالَ خوضهم في آياتنا، ثم ذكرتَ ذلك، فقم عنهم، ولا تقعد بعد تذكرك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في الباطل.

وفي الآية إشارة واضحة إلى أن النسيان أحد أهم أسلحة الشيطان: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ .

والنسيان -إضافة إلى أنه فطرة- إلا أنه كذلك قد يكون عقوبة ربانية على سالف العصيان الذي أوقعك فيه الشيطان كما قال ربنا:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] .

قال **القشيري**:

(لحقهم شؤم المخالفات حالة بعد حالة، لأن من عقوبات المعاصي الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهي، فبنقضهم الميثاق، ثم لم يتوبوا، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات، ثم لشؤم

(١١٨) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: . ٥٢٠٩

كفرهم خُذِلوا حتى قتلوا أنبياءهم- عليهم السّلام- بغير حق، ثم لشؤم ذلك تجاسروا حتى ادَّعوا شدة التفهّم، وقالوا: قلوبنا أوعية العلوم، فردَّ الله عليهم وقال: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فحجبهم عن محلِّ العرفان، فعمهوا في ضلالتهم)[(١١٩)] .

لكن ..ما هي

أنواع النسيان ..!؟

١. نسيان العهد الأول:

في الحديث الصحيح:

«إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة، وأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلَّمهم قبلا قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣] »[(١٢٠)] .

ومن كيد الشيطان أن ينسي العبد هذا العهد، فتجد من أشرك مع الله إلها آخر، وتجد من خان العهد فاستزله الشيطان حتى أن أربع أخماس الأرض لا يؤمنون بالله.

وقد شرع الله لنا الحج لنرجع إلى المكان نفسه الذي عاهدنا الله عنده ونحن في عالم الذر، ليتذكر ما عاهد عليه، والحر الكريم لا ينقض العهد القديم، والبَرُّ الوفي لا ينسى عهد من لا ينساه طرفة عين، وكأن الله فرض عليك الحج لتعود إلى نفس المكان تذكيرًا لك لتستحي من نقض عهدك، بل لتجدده معلنًا أنك ستظل وفيـًا لما تعلّمته أثناء حجك، وستداوم عليه بقية حياتك بعد رجوعك إلى وطنك، وإلا فمن لم يوفِّ بعهده اليوم عوقب بالصَّد غدًا.

---

(١١٩) لطائف الإشارات ٣٨١.

(١٢٠) صحيح: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٠١ .



٢. نسيان عهد التوبة:

كم عاهد الله ونكث؟!

كم بكى ندما ثم انتكس!

ولو فعل هذا مع بشر مثله لاستحى وأناب، ولأصلح ما أفسد وتاب.

في ليلة السابع والعشرين من رمضان .. سال دمعه، وفاض قلبه بالخشية والوجل، وجدَّد العهد في قلب المحراب .. وسط جموع التائبين، ثم نسي كل هذا وإلى سالف العصيان عاد.

فمن عاهد الله أو نذر ألا يفعل الحرام ثم عاد إليه، فقد اكتسب إثمين: إثم فعل الحرام، وإثم نقض العهد والحنث في اليمين والنذر، وقد أوجب الله تعالى الوفاء بالعهود، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] .

ومن عاهد الله -تعالى- على فعل شيء فلم يفعله، أو عاهده الله على عدم الفعل ففعل، فعليه إثم نقض العهد، وعليه كفارة يمين، لأن العهد يمين ونذر، ومن حنث فيهما فعليه كفارة يمين وهي التخيير بين عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، فمن لم يجد أو لم يستطع : فليصم ثلاثة أيام.

وفي الأمر تفصيل. قال ابن قدامة:

(إن قال: عليَّ عهد الله وميثاقه لأفعلن، أو قال: وعهد الله وميثاقه لأفعلن، فهو يمين.

وإن قال: والعهد والميثاق لأفعلن، ونوى عهد الله كان يمينا، لأنه نوى الحلف بصفة من صفات الله تعالى) [١٢١] .

---

(١٢١) المغني ٩/ ٤٠٠.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مزيد إيضاح:

(والعهود والعقود متقاربة المعنى أو متفقة،

فإذا قال أعاهد الله أني أحج العام فهو نذر وعهد ويمين،

وإن قال لا أكلم زيدا فيمين وعهد لا نذر،

فالأيمان تضمنت معنى النذر، وهو أن يلتزم لله قربة لزمه الوفاء، وهي عقد وعهد ومعاهدة لله لأنه التزم لله ما يطلبه الله منه) [١٢٢] .

٣. نسيان النعم:

وهاوية النسيان الثانية التي يدفعك إليها الشيطان دفعا ليسفك دمك هي أن ينسيك نعم الله عليك.، وهي صفة غالبة في الإنسان إذا غابت عنه شمس الإيمان: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾[العاديات: ٦] .

كثرة النعم أنسته وجودها ..

وذلك مثل الهواء اللطيف الذي لا يُحسُّ به، فلا يشكر العبد نعمة الهواء، ولو انقطعت عنه ساعة لمات.

قال الحسن بن أبي الحسن يصف حال الأكثرين:

(يعدِّد المصائب وينسى النعم) [١٢٣] .

ولذا قال محمود الوراق من قلبٍ محترق مكلوم، ومهاجما من لم يكتف بخطيئة النسيان بل وجمع معها السخط والشكوى، ومتهما إياه بالظلم فقال:

---

(١٢٢) الفتاوى الكبرى ٥ / ٥٥٣.

(١٢٣) شعب الإيمان ٤/١٥٣.

يا أيها الظالم في فعله والظلــــــــم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النِّعَم

الكنود إذن هو الجاحد لنعمة ربه، المنكر لإحسانه!

وقال **الفضيل** في تفصيل معنى كلمة الكنود وهو يكشف أغوار النفس البشرية ويفك طلاسمها:

(الكنود: الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة ويعامل الله على عقد عِوَض)(١٢٤) .

هذا رجلٌ عقده مع الله بنوده:

إن أعطيتني شكرت، وإن منعتني عصيت!

والكنود لغةً: ترجع إلى الأرض الكنود، وهي التي غلب عليها السبخة ولا يخرج منها البذر، فتتعصى على الزرع فلا تنبت، فهي عاصية وبخيلة، ثم كثر استعمال الكلمة في الكافر بالنعمة، فلا يؤدى حقها، وذلك أسوأ أنواع البخل.

ومن بعد نسيان النعم تكون النتيجة الحتمية: الشكوى ، وهذا لون من ألوان كفران النعمة، ولذا قالوا في الكنود: الكفور لنعمه، وأنشدوا:

كَنُودٌ لِنعْمَاءِ الرِّجَالِ ومَنْ يَكُنْ ... كَنُوداً لِنعْماءِ الرِّجَالِ يُبعَّدِ

ومن كان هذا حاله فلا خير يُرتجى منه، ولذا جاء في معاني الكنود كذلك: الذي لا خير فيه.

وجاء هذا الوصف كجواب للقسم الإلهي، فهو قسم رب العزة -ولا حاجة له إلى قَسَم- على أن أكثر الناس سقطوا في هذا الفخ، ولذا جاء التعبير بلفظ الإنسان لإفادة العموم.

(١٢٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥/ ٥١٤- ابن عطية- دار الكتب العلمية.

رُوِي أنه كان في زمن حاتم الأصم رجل يقال له معاذ الكبير، أصابته مصيبة، فجزع منها وأمر بإحضار النائحات وكسر الأواني، فسمعه حاتم فذهب إلى تعزيته مع تلامذته، وأمر تلميذًا له، فقال: إذا جلست فاسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[العاديات: ٦] . فسأله فقال حاتم : ليس هذا موضع السؤال!! فسأله ثانيًا وثالثًا، فقال : معناه أن الإنسان لكفور، عدّاد للمصائب، نسّاء للنعم، مثل معاذ هذا!! إن الله –تعالى– متّعه بالنعم خمسين سنة، فلم يجمع الناس عليها شاكرًا لله، عز وجل ، فلما أصابته مصيبة جمع الناس يشكو من الله تعالى!! فقال معاذ: بلى .. إن معاذًا لكنود عدّادٌ للمصائب نسَّاء للنعم ، فأمر بإخراج النائحات وتاب عن ذلك.

عند أول بلية

هذا هو خُلُق الأطفال .. يبكي عند نزع اللعبة من بين يديه!!

هؤلاء ..

إن ابتُلِي أحدهم بمصيبة ثم نجّاه الله منها شَكَر، وإلا فلا، وكأن شكره موقوفٌ على أن تُردَّ عليه النعمة!!

وعجيبٌ ألا يشكر الأعمى نعمة البصر إلا بعد أن يُصاب بالعمى؟!

وألا يعلم الطائع فضل ربه عليه إلا حين يُحرَم الخشوع ودموع التائبين؟!

وألا يشكر الإنسان النعم التي يرفل فيها ما دام قد شاركه فيها غيره؟!

ولذا كان من ألوان الشكر التي ينسيها الشيطان للعبد:



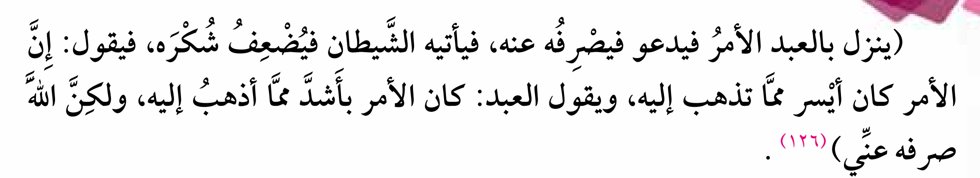
- حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر.
- ومعرفته بتقصيره في الشكر شكر.
- والاعتذار عن قلة الشكر شكر.
- ومعرفة عظيم فضل الله ولطيف فعله شكر.
- والاعتراف بأن نعم الله من غير استحقاقٍ العبد لها شكر.
- والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر حتى قيل: غاية شكر اللهَّ تعالى الاعتراف بالعجز عنه.
- وقلة الاعتراض على أقدار الله وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر.
- واستعظام قليل نعمة الله شكر.
- وشكر من أسدى إليك النعمة ومن توسَّط فيها شكر: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)[(١٢٥)].

وكل هذه علامات شكر ينسيكها الشيطان، ليكون الجحود منك بعد النسيان، والإنكار بعد العرفان، ولربما تدهور الحال إلى استخدام نعم الله في ما يغضبه، واستعمالها في ضد ما خُلِقت له.

وهي وسيلة شيطانية يلجأ إليها الشيطان ليحقِّر شأن النعمة في عين العبد، فيصرفه عن شكرها، وهو ما لاحظه **بكر بن عبد الله المُزنيَّ** فقال:

---

(١٢٥) قال القاضي : وهذا إما لأن شكره تعالى إنما يتم بمطاوعته وامتثال أمره، وأن مما أمر به شكر الناس الذين هم وسائط في إيصال نعم الله إليه، فمن لم يطاوعه فيه لم يكن مؤديا شكر نعمه، أو لأن من أخل بشكر من أسدى إليه نعمة من الناس مع ما يرى من حرصه على حب الثناء والشكر على النعماء وتأذيه بالإعراض والكفران كان أولى بأن يتهاون في شكر من يستوي عنده الشكر والكفران». مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٥/ ٢٠١٢.



(ينزل بالعبد الأمرُ فيدعو فيصْرِفُه عنه، فيأتيه الشَّيطان فيُضْعِفُ شُكْرَه، فيقول: إِنَّ الأمر كان أيْسر ممَّا تذهب إليه، ويقول العبد: كان الأمر بأَشدَّ ممَّا أذهبُ إليه، ولكِنَّ اللهَّ صرفه عنِّي) [١٢٦] .

تمام النعمة!

وأعظم نعمة يود الشيطان لو يُنسيكها هي نعمة اصطفائك للإسلام واختيارك لتكون من أهل الإيمان، وهي نعمة يغفل عن شكرها كثير من الناس فيتخبطون، فقد روى **ابن القيِّم** أن السلطان حبس رجلا، فأرسل اليه صاحبه: **اشكر الله!**

فضُرِب فأرسل اليه: **اشكر الله!**

فجيء بمحبوس مجوسي مبطون فقُيِّد، وجُعِل حلقةٌ من قيده في رجله، وحلقة في الرجل المذكور، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات، فيحتاج الرجل أن يقف حتى يفرغ، فكتب إليه صاحبه: **اشكر الله**، فقال له:

إلى متى تقول اشكر الله! وأي بلاء فوق هذا!

فقال:

(ولو وُضِع الزُّنار الذي في وسطه في وسطك كما وُضِع القيد الذي في رجله في رجلك .. ماذا كنت تصنع! فاشكر الله) [١٢٧] .

ومثل ذلك أن دخل رجل على **سهل بن عبد الله** فقال: إن اللص دخل داري وأخذ متاعي فقال: **(اشكر اللهَّ تعالى! لو دخل اللص قلبك وهو الشَّيطان، وأفسد التوحيد، ماذا كنت تصنع؟!)** [١٢٨] .

ومن انتبه لهذه النعمة الكبرى فقام بشكرها، فسيفوز غدا بالنعمة التامة التامة!

وما النعمة التامة؟!

(١٢٦) الشكر لابن أبي الدنيا ١/ ١٣.
(١٢٧) عدة الصابرين ص ١٣٨.
(١٢٨) الرسالة القشيرية ١/ ٣١٤.

سئل **أبو بكر بن أبي مريم**: ما تمام النعمة؟!

قال:

(أن تضع رِجلا على الصراط، ورِجلا في الجنة) [١٢٩] .

٤. نسيان حال البلاء بعد حلول الرخاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: ٨] .

هذا تقريع لمن ينسى الدعاء في الرخاء، ويفزع إليه في الشدة، وليس هذا من أخلاق المؤمنين، إذ من أخلاقهم إكثار الدعاء في الرخاء استعدادا للشدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يستن بالكافرين، فلا يفزع إلى الدعاء إلا في الشدائد.

والتخويل : الإعطاء والتمليك دون قصد عوض، وهذا لا يكون إلا من الله وحده، وهو مشتق من الخَوَل بفتحتين وهو اسم للعبيد والخدم.

وإذا تكرر منه هذا النسيان عوقب عليه أشد المعاقبة.

قال **سهل بن عبد الله** حين تكلم عن رمز الثراء المغرور قارون وقولته الشهيرة:
﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] .

(نسي الفضل وادعى لنفسه فضلا، فخسف الله به ظاهرا، وكم قد خَسَف بالأشرار وأصحابها لا يشعرون بذلك، وخَسَف الأشرار هو منع العصمة، و الرَّد إلى الحول والقوة، وإطلاق اللسان بالدعاوي العريضة، والعمى عن رؤية الفضل، والقعود عن القيام بالشكر على ما أولى وأعطى، حينئذ يكون وقت الزوال) [١٣٠] .

---

(١٢٩) عدة الصابرين ص ١٣٨

(١٣٠) تفسير التستري ١/ ١١٩ - ط منشورات محمد علي بيضون - دارالكتب العلمية - بيروت.

الأسلحة المضادة

أولاً ذكر الله

قال تعالى:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤].

يؤخذ من عموم النص: (**الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله، ويُذكِّر العبد ما سها عنه، وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكونن من الغافلين**)[١٣١].

وحماية الذكر للعبد من الشيطان واضحة بينة، وما أوضح ذلك في حديث:

«إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن:

وأمركم بذكر الله كثيرا، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره، فأتى حصنا حصينا، فأحرز نفسه فيه، وإنَّ العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله تعالى».

وانظر نموذج الانتصار الخارق على الشيطان في هذا الشأن وفي كل شأن، فقد كان ﷺ يذكر الله في كل أحواله، وذا فهو هو المعصوم الذي لا يقربه شيطان، ولأن الشيطان لا يقربه فلذا لم يتثاءب قط!

وهجر الذكر ما هو إلا عملية استسلام كاملة للشيطان وتمكين له من أرض القلب، وهذه معلومة موثَّقة من ساحة القتال الإيماني أخبر بها المعصوم، فعن **أبى الدرداء** رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١٣١) حسن: روا أحمد عن أبي الدرداء كما في مسند أحمد رقم: ٢١٧١٠.

«ما من ثلاثة في قرية لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان»(١٣٢).

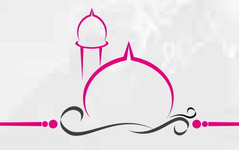
واستحوذ أي استولى؛ يُقال: حاذ الإبل حَوْذا إذا استقاها، فالذين استحوذ عليهم الشيطان ساقهم إلى خلاف ما أمر الله به ورسوله، ولهذا يخنس الشيطان عند ذكر الله، ويوسوس للعبد عند غفلته عن الذكر، ومن هنا سُمِّي الشيطان بالوسواس الخناس، فإنه جاثم على فؤاد ابن آدم؛ إن ذكر الله خنس، والخنوس نوع من الذِّلة والهوان لأن معناه لغةً: الاختفاء بانخفاض، وإنما ينخنس الإنسان ممن يهابه ويعظِّمه، فهكذا حال الشيطان حين تذكر الله ؛ يذل لك ويخضع ويختفي عن قلبك.

والهروب الشيطاني ثابت بنص الأحاديث، ولو رُفِع عنا الحجاب اليوم لرأينا جموع الشياطين يَفِرون من ساحات القتال مدبرين مع سماع الذكر. قال رسول الله ﷺ:

«إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند طعامه قال الشَّيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء» (١٣٣).

وبكلمة ذكر واحدة تطرد الشيطان عنك سائر يومك، **واحفظ هذا الحديث** وحافظ عليه:

«كان ﷺ إذا دخل المسجد قال: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم وقال: إذا قال ذلك حُفِظَ منه سائر اليوم»(١٣٤).

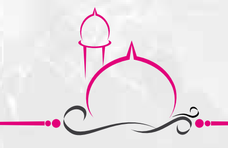


(١٣٢) تفسير السعدي ص ٤٧٤.
(١٣٣) صحيح: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم: ٨١٦.
(١٣٤) صحيح: رواه أبوادود عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧١٥.



قال ابن الجوزي:

(واعلم أن مثل إبليس مع المتقي والمخلِّط كرجـــلٍ جالسٍ بين يديه طعام، فمرَّ به كلب، فقال له: اخسأ! فذَهَب، فمرَّ بآخر بين يديه طعام ولحم، فكلما أخســـــأه لم يبرح، فالأول مثل المتقي يمُرُّ به الشَّيطان، فيكفيه في طرده الذكــر، والثاني مَثَل المخلِّط لا يفارقه الشَّيْطَان لمكان تخليطه)[١٣٥].



(١٣٥) تلبيس إبليس ١/ ٣٥.



ثانياً الدعـاء

ذلك أن لا نجاة إلا بالله، ولا توفيق إلا به، ومن ظن أنه بغير الله ناجٍ فقد هلك، ولذا قال **أبو عبد الله الساجي**:

(قال إبليس: من ظنَّ أنه ينجو مني بحيلته، فبِعُجْبِه وقع في حبالي)(١٣٦) .

وهو دعاء قبل وقوع النسيان وبعده.

فأما **قبل وقوعه** فهو دعاء بأن يعصمك الله منه وينجيك من عواقبه.

عن **الأعرج** قال: سمعت **أبا هريرة** يقول:

إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ والله الموعد، كنت رجلا مسكينا أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فقال رسول الله ﷺ:

«من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئا سمِعَه مني».

فبسطت ثوبي حتى قضى حديثه، ثم ضممته إليَّ، فما نسيت شيئا سمعته منه(١٣٧) .

فدعاؤك لنفسك ودعاء غيرك لك هو خير وقاية من النسيان.

وأما **الدعاء بعده**، فهو الدعاء بالمغفرة إذا وقعت في النسيان، وقد قال تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

ويجوز أن يكون هذا الدعاء على لسان المؤمنين، ويجوز أن يكون تلقينا من الله تعالى لهم بأن يردِّدوا هذا الدعاء، مثل ما لقَّنهم الحمد في الفاتحة، والمؤاخذة مشتقة من الأخذ بمعنى العقوبة، كقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ [هود: ١٠٢]،

---

(١٣٦) حلية الأولياء ٩/ ٣١٧.

(١٣٧) صحيح: صحيح مسلم رقم: . ١٥٩

والمفاعلة فيه للمبالغة.

جاء في التفسير:

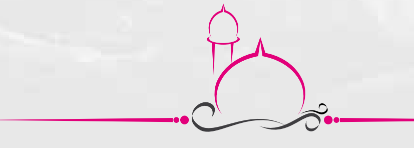
(من رحمة الله بنا وألطافه علينا- أتباع هذه الملة السمحاء- أن دعانا إلى أن ندعوه بهذا الدعاء، الذي صاغه سبحانه من كلماته، وجعله سبحا لملائكته ولعباده الصالحين، يسبِّحون له، ويدعون لنا به.. بل إنه سبحانه وتعالى يأتمّنا بهذا الدعاء، ويصلى علينا به، ونحن نقول بما يقول، ونصلى بما يصلى، فما أكثر رحمة الله بنا، وما أوسع فضله علينا.. إذ تقبَّل دعاءنا قبل أن ندعو، واستجاب لنا قبل أن نكون!) (١٣٨) .

و هذا غاية الكرم وكمال الإحسان أن يُعلِّمهم الطلب ليعطيهم ويرشدهم للسؤال ليثيبهم ولذلك قيل:

لو لم تُرِد نيل ما أرجو طلبه ... من فيض جودك ما علَّمتني الطلبا

فمن أُلِهم الدعاء فقد أُريد به الاجابة كما قيل في الحكم: متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك.

أو أن هذا الدعاء يدل على غاية الصفاء الإيماني، أي: الله يحب ألا يُعْصى إلا خطأ أو نسيانا، ولا يصح ولا يستقيم أن يُعصى عمداً؛ لأن الذي يعرف قدر الله حقا، لا يليق منه أن يعصي الله إلا نسيانا أو خطأ؛ فكأننا يا رب نقدرك حق قدرك، ولا نجترئ على عصيانك عمدا، وإن عصيناك فإنما هو النسيان أو الخطأ، وهذه معرفة المؤمن بقدر الحق سبحانه وتعالى.



(١٣٨) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٣٩١ - عبد الكريم يونس الخطيب – ط دار الفكر العربي – القاهرة.

دعاء الاستعاذة!

والاستعاذة دعاء، وأعظم الاستعاذة ما جاء في المعوِّذتين، ففي الحديث:

«كان يتعوَّذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوِّذتان، فلما نزلتا أَخَذ بهما وترك ما سواهما»[(١٣٩)] .

قال ابن حجر:

(وهذا لا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين بل يدل على الأولوية، ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلا)[(١٤٠)] .

ولذا جاء في حديث عقبة:

«يا عقبة؟

ألا أعلمك خير سورتين قُرِئتا؟

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾.

يا عقبة!

اقرأ بهما كلما نمت وقمت، ما سأل سائلٌ ولا استعاذ مستعيذٌ بمثلهما»[(١٤١)] .

قال عقبة:

فما أتت علي ليلة إلا قرأتهن فيها، وحُقَّ لي ألا أدعهن وقد أمرني بهن رسول الله ﷺ.

---

(١٣٩) صحيح: رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٤٩٠٢.
(١٤٠) الفتح ١٠/ ١٩٥.
(١٤١) حسن: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن عقبة بن عامر كما في صحيح أبي داود رقم: ١٣١٥.

وتأمَّل معي:

سورة الفلق: استعاذة من الشرور الخارجية، والمستعاذ به ممدوحٌ بصفة واحدة: الرب، وأما المستعاذ منه فثلاث آفات: الغاسق والنفاثات والحاسد.

وسورة الناس: استعاذة من الشرور الداخلية (الوسواس) وهي الأخطر، لأنها ملازمة لا تنفك إلا بصعوبة، بعكس الخارجية التي تهرب منها إن أردت، ولأنها أخطر فالمستعاذ به مُعظَّمٌ بصفات ثلاثة: الرب والملك والإله، وأما المستعاذ منه فهو آفة واحدة، وهي الوسوسة.

ولاحظ كذلك أن الثناء جاء بحسب قدر المطلوب، فالثناء في سورة الناس أكثر لأن المطلوب هو سلامة الدين، وأما المطلوب في سورة الفلق فسلامة الدنيا، وهذا تنبيه على أن مصيبة الدين وإن قلَّت أعظم من مصيبة الدنيا وإن عظمت.

ثالثا الصحبة

وهي من أهم أسلحة مقاومة النسيان، فالصاحب الخيِّر إن نسيتَ ذكَّرك، وإن ذكرتَ أعانك، وتتضاعف أهمية سلاح الصحبة كلما اشتهر العبد وعلت مكانته بين الناس.

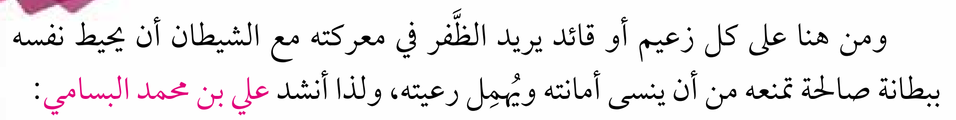
قال رسول الله ﷺ:

«إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكِّره، وإن ذكر لم يُعِنه» [١٤٢].

فكلما كان العبد أشهر كان الشيطان إليه أقرب، وانحـــــرافه أخطر، وفي حالة الأمير، فإن انحرافه هدف من أهم أهداف الشـــــيطان، فبانحرافه ينحرف خلق كثير، ولهذا يصبح هدفا مفضَّلا لدى إبليس.

---

(١٤٢) صحيح: رواه أبو داود والبيهقي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٢.



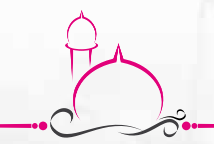
ومن هنا على كل زعيم أو قائد يريد الظَّفر في معركته مع الشيطان أن يحيط نفسه ببطانة صالحة تمنعه من أن ينسى أمانته ويُهمِل رعيته، ولذا أنشد علي بن محمد البسامي:

إذا نَسي الأمير قضاءَ حق ... فإن الذَّنب فيه للـــوزير

لأنَّ على الوزير إذا تــولى ... أمورَ الناس تذكير الأمير

وغيبة الصحبة ترمي بك في وادي الغفلة والنسيان، فإنك حين تتفرَّد يُخرِجك الشيطان من عرينك ومصدر قوتك، وينزع عنك أسباب منعتك حتى ينفرد بك وحدك.

وكلما كان عدد الصحبة أكبر كانت الحماية أقوى، وكلما كان أفراد صحبتك أتقى وقلوبهم أنقى كلما كان الشيطان أبعد وفرص الغواية أصعب والجنة إليك أقرب.



المكيدة الثانية
التزييـــن

كما لا يغني ضوء الشمس عديم البصر، فكذلك لا ينفع كثرة الاحتشاد بالأعمال مع قلة العلم بمكائد الأعداء.

ويشمل التزيين:

١. اللذة المبالغ فيها:

للمعصية حلاوة زائفة عابرة لا تبقى سوى لحظات أو ساعات..

يزيِّنها لك الشيطان ويحسِّنها، ويخيِّلها لك في خيالٍ تميل إليه نفسك، ثم لا يزال يُمثِّل ويمنّي ويُشَهِّي، ويُنسيك علمك بضررها، ويطوي عنك سوء عاقبتها، فلا ترى إلا صورة المعصية ومتعتها فقط، وتنسي ما وراء ذلك، فإذا وقعت فيها استفقت!

قال ابن القيم وهو يصف حال المؤمن بعد ان انقضت عنه لذة المعصية:

(لا ينال لذة المعاصي إلا سكران بالغفلة، فأما المؤمـــن فإنه لا يلتذ بها لأنه عند التذاذه يقف أمامه علم التحريم، وحـذر العقوبة، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي [وهو الله] فيتنغص عيشه وقت التذاذه، وما هي إلا لحظة ثم ندم ملازم، وبكاء متواصل، وأسف على ما كان مع طول الزمان، حتى لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب) [١٤٣] .

(١٤٣) صيد الخاطر ص٩٧.

وما أروع قول أبي دُلَف العِجْلي يحكي قصة الحسرة والندم عقب خسارة عبدٍ لإحدى جولاته مع الشيطان:

واســـــوأتا لفتى له أدبٌ ... يضحى هـــــواه قاهرا أدبَه

يأتي الدَّنِية وهو يعـــــرفها ... فيشـــين عِرْضا صائنا أَرَبه

فإذا ارعوى عادت بصيرته ... فبكى على الحين الذي سُلِبَه

ومثالٌ لهذه اللذة المبالغ فيها: النظرة المحرَّمة، وخاصة إذا تناولتها شاشات السينما والمجلات المصوَّرة، وقد قال رسول الله ﷺ:

«المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[١٤٤] .

قال الطيبي:

(والمعنى المتبادر أنها ما دامت في خدرها لم يطمع الشيطان فيها وفي إغواء الناس، فإذا خرجت طمع وأطمع لأنها حبائله وأعظم فخُوخِه، وأصل الاستشراف وضع الكف فوق الحاجب ورفع الرأس للنظر)[١٤٥] .

فهنا أجهزة الرصد الشيطانية التي ترصد كل امرأة عند خروجها، ويتأهب إبليس بأسلحة الزينة والإغراء، فيغري بهذه المرأة الرجال، ويزيدها فتنة فوق فتنتها، وجمالا مع جمالها، وهذا هو السر في أنك تجد زوج المرأة الجميلة يطلق بصره في من هو دونها جمالا بكثير، والسبب واضح: أرسل إبليس اثنين من جنوده في وقت واحد، الأول لتزيين المرأة والثاني لإلقاء شهوة النظر والتمعن في قلب الرجل، وبذا تلتقي النار والزيت في إناء واحد.

---

(١٤٤) صحيح: رواه الترمذي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٩٠.
(١٤٥) فيض القدير ٦/ ٢٦٦.

٢. التلبيس:

وتلبيس الأمر هو تَخْليطه. وأخطر شيء في هذا السلاح هو أنه يصد عن التوبة، فلو أذنب العبد ذنبًا، ثم ذكره لاستغفر الله منه وتاب لعلمه بحقيقة الذنب وخشيته من عقاب الله .. أما إذا وقع العبد في المعصية وظن أنها عمل صالح، فهذا لا يستغفر الله منها، بل يستزيد! ومن هنا جاءت خطورة البدعة، لأن صاحبها يحسب أنه على خير وهو والغ في مستنقع الشر.

قال **سفيان الثوري**:

(البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها)(١٤٦).

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾وهؤلاء هم أخسر الخاسرين، فقد قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلاً﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤] .

وما أشدها من آية!

أن يجتهد المرء ويكون اجتهاده وبالاً عليه، فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه.

وهذا التلبيس قد يتسبَّب فيه ويضاعف آثاره ما جناه الإنسان بيده، ويوضِّح هذا **ابن القيم** فيقول:

(وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله -تعالى- ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة الله عليه ، فإذا تمادى في غيه وظلمه ذهب ذلك النور فلم يرَ قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم)(١٤٧).

---

(١٤٦) حلية الأولياء ٧/ ٢٦.

(١٤٧) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ١/ ١٠٣- ابن قيم الجوزية - ط دار المعرفة بيروت.



وفي ظلال القرآن حلَّق بنا سيد قطب في سماء هذه الآية فقال:

(هذا هو مفتاح الشر كله.. أن يزيِّن الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنا..

أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها. ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثق من أنه لا يخطئ! متأكد أنه دائماً على صواب! معجب بكل ما يصدر منه! مفتون بكل ما يتعلق بذاته. لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر. وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه. لأنه حسن في عين نفسه. مزين لنفسه وحسه. لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان!

هذا هو البلاء الذي يصبه الشيطان على إنسان؛ وهذا هو المقوِّد الذي يقوده منه إلى الضلال. فإلى البوار!

إن الذي يكتب الله له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب. فلا يأمن مكر الله. ولا يأمن تقلب القلب. ولا يأمن الخطأ والزلل. ولا يأمن النقص والعجز. فهو دائم التفتيش في عمله. دائم الحساب لنفسه. دائم الحذر من الشيطان، دائم التطلع لعون الله.

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال، وبين الفلاح والبوار.

إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن في ألفاظ معدودة:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ ﴾ [فاطر: ٨] .

إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير. ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين. هو هذا الغرور. هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق. ولا يحسن عملاً لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء. ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ!

ولا يصلح فاسداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل

خطوة من خطواته إصلاح!

إنه باب الشر. ونافذة السوء. ومفتاح الضلال الأخير..

ويدع السؤال بلا جواب..﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ ﴾ ليشمل كل جواب كأن يقال:

أفهذا يرجى له صلاح ومتاب؟!

أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله؟!

أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء؟!

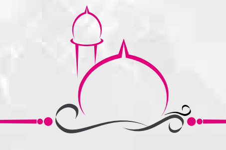
إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال.

إنه باب الشر..

ونافذة السوء..

وغنيمة الشيطان الرابحة..

ومفتاح الضلال الأخير).





أحد عشر فخًا!

ورحم الله مصطفى السباعي فقد وضَّح لنا أحد عشر صورةً لهذه المكيدة الشيطانية والحيلة الإبليسية، فقال عن الشيطان:

(ويغريك بالدنيا عن طريق الحيطة من تقلُّباتها..

ويغريك بمصاحبة الأشرار عن طريق الأمل في هدايتهم..

ويغريك بالنفاق للظالمين عن طريق الرغبة في توجيههم..

ويغريك بالتشهير بخصومك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ويغريك بتصديع وحدة الجماعة عن طريق الجهر بالحق..

ويغريك بترك إصلاح الناس عن طريق الاشتغال بإصلاح نفسك..

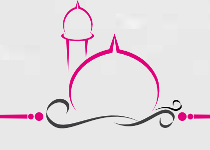
ويغريك بترك العمل عن طريق القضاء والقدر..

ويغريك بترك العلم عن طريق الانشغال بالعبادة..

ويغريك بترك السنَّة عن طريق اتباع الصالحين..

ويغريك بالاستبداد عن طريق المسؤولية أمام الله والتاريخ..

ويغريك بالظلم عن طريق الرحمة بالمظلومين).



تلبيسه على العلماء!

ومن أشد حيله وأعظم كيده تلبيسه على ورثة الأنبياء وهم العلماء. قال **سفيان الثوري** وهو بكلامه هذا مثابة جاسوس القلوب يعلن أسرارها ويكشف خفاياها:

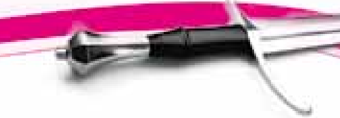
(إذا رأيت القارئ يلوذ بالسلطان، فاعلم أنه لِصٌّ، وإذا رأيته يلوذ بالاغنياء فاعلم أنه مِراء، وإياك أن تخدع، ويُقال لك: تَرُدُّ مظلمة، وتدفع عن مظلوم، فإن هذه خدعة إبليس، اتخذها القراء سُلَّما) [148] .

وهو تلبيس يسوقه الله على العلماء لكي يُضِلَّ بهم بدلا من أن يهدي، ويسوق بهم إلى النار بدلا من دلالتهم على الجنة. قال عن هؤلاء **ابن القيم**:

(وقد غرَّ إبليس أكثر الخلق بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطَّلوا هذه العبوديات (الأمر بالعروف والنهي عن المنكر)، فلم يحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس دينا، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالا عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجها ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينا، والله المستعان.

وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم

(١٤٨) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٨٦.



لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل) (١٤٩) .

وزلة العالم أو فجوره قنبلة موقوتة يَستهدف بها الشيطان الجماعات من الناس، ويضرب بها إيمان الآلاف أو الملايين بضربة واحدة، فما أشد خطره وأعظم زلته.

قال ابن القيم:

(فان الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعُبَّادهم، فإذا كان العلماء فجَرة، والعُبَّاد جَهَلة عمَّت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة) (١٥٠) .

الحِيَل!

ومن تلبيسه على العلماء استدراجهم للحيل، ومنها حيل الزواج والطلاق، فقد ذُكِر لأحمد بن حنبل أن امرأة كانت تريد أن تفارق زوجها، فيأبى عليها، فقال لها بعض أرباب الحيل: لو ارتددت عن الإسلام بِنْتِ منه! ففعلت، فغضب أحمد رحمه الله وقال: **من أفتى بهذا أو علَّمه أو رضي به فهو كافر.**

وقال عبد الله بن المبارك وهو يعلِّق على هذا الموقف:

ما أرى الشيطان يحسن مثل هذا حتى جاء هؤلاء فتعلَّمه منهم.

في ظل أزمنة التدهور الإيماني والحضاري للأمة انتشر التحايل على أحكام الشرع وتلاعب الشيطان بعقول الكثيرين علماء ومتعلِّمين، وظهرت كتب جمعت الحيل والمخارج من المآزق التي يقع فيها الإنسان، ومنها ما سُمِّي بكتاب الحيل الذي قال فيه النضر بن شميل:

---

(١٤٩) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٢١ - ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية.
(١٥٠) مفتاح دار السعادة ١/ ١٦٠.

في كتاب الحيل ثلاثمائة وعشرون مسألة كلها كفر!

وقال **حفص بن غياث** عن هذا الكتاب:

ينبغي أن يكتب عليه: كتاب الفجور.

وهذا النفر سواء كان العالم المفتي أو الجاهل المستفتي قد غرَّهم الشيطان وتلاعب بدينهم، ولذا صرخ فيهم **أيوب السختياني** وتوعَّدهم بقوله:

(ويل لهم، من يخدعون؟! يعنى أصحاب الحيل)[151].

٣. التعايش السلبي:

إليك هذه النماذج الهزلية للتعايش بين الطاعة والمعصية:

* موظف يطلب رشوة فيدخل عليه أحد أصحابه بكوب ماء فيعتذر أنه صائم لأن اليوم الإثنين!
* تاجر في مواد محرمة يُصرُّ على الحج كل عام..
* ضابط شرطة يقطع وصلة التعذيب لأداء الصلاة!
* آكل مال يتيم يحرص على تجديد اشتراكه الشهري في كفالة يتيم!
* يحج ويعتمر على مدار سنين ويميل بقلبه مع اليهود ضد المجاهدين.
* على علاقة آثمة بفتاة ويساعدها على الاستيقاظ لأداء صلاة الفجر..

وفي طرح نماذج مشابهة قال ابن القيم:

(تجد الرجل يقوم الليل، ويصوم النهار، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكُّه في أعراض الخلق، وربما رخَّص أهل

(١٥١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ١/ ٧٠-ابن قيم الجوزية-دار ابن كثير دمشق.

الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم، وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام، والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، ولا يبالى بارتكاب الفرج الحرام كما يُحكى أن رجلا خلا بامرأة أجنبية، فلما اراد مواقعتها قال: يا هذه! غطِّي وجهك، فإنَّ النظر إلى وجه الأجنبية حرام).

وقد سأل رجلٌ **عبدَ الله بن عمر** عن دم البعوض، فقال:

(انظروا إلى هؤلاء! يسألونى عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله)

يتهكَّم شاعر اليمن **عبد الله البردوني** على واحد من هؤلاء المغرورين فيقول:

بنى مســـجدا لله من غيرِ حلِّهِ ... وكان -بحـــمدِ الله- غيرَ مُوَفَّقِ
كَمُطعِمَةِ الأيتام مِن كدِّ فرجِها ... لكِ الويلُ..لا تزني ولا تتصدَّقي!

وخطورة هذا الفخ أن فيها تهوينا في القلب من قدر المعاصي، بل وأحيانا إنكار أنها معصية، وهي حيلة شيطانية يستهدف بها الشيطان اللعين نزع الندم وتأنيب الضمير، ويؤز عليك رفاق السوء من شياطين الإنس يروِّجون لك مفهوم التعايش السلمي بين الطاعة والمعصية، فيضعف واعظ الله في قلبك، ويذبل دينك، وتقع في الفتن، وحتى لو فعلت الطاعة، فلا ينتفع بها قلبك تمام الانتفاع لأنها تكون هنا بمثابة مخدِّر يؤهِّلك للتعايش مع كبيرة من الكبائر على حساب نافلة من النوافل.

وما أربح الشيطان في صفقة كهذه؟

وما أشد خداع إبليس واستغفاله لهذا العبد المخدوع؟!

وكأني به أراه يقهقه في الأرجاء وهو يرى نجاح خطته وغفلة فريسته!

ولقد شارك **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه في فضح هذا المسلك ووضع ميزانا للتقوى ومقياسا للإيمان يكشف فيه من بكى ممن تباكى، والجوهر من الزيف، والنفيس من الخيس، فقد



قال رحمه الله:

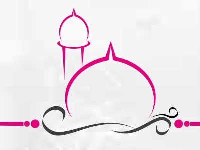
(لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدَّث، وأمانته إذا ائتُمِن، وورعه إذا أشفى)[١٥٢] .

٤. تسمية الأسماء بغير مسمياتها:

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمي الأمور المحرمة بأسماء محببة للنفوس خداعا للإنسان وتزييفا للحقيقة، وهي من أوائل خدعه ومكائده، كما سبق وسمّى الشجرة المحرمة بشجرة الخلد كي يزين لآدم الأكل منها:

﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[طه : ١٢٠] .

ويقصد العدو من هذا ألا يدع ضحاياه فريسةً لتأنيب الضمير، وأسرى لتقريع المواعظ، وإنما يحاول أن يبقيهم في سلام داخلي مع أنفسهم بأن يزيِّن لهم أعمالهم ويسمِّيها بغير اسمها، فلا يشعروا بأي نفور عنها، أو أنها مخالفة للفِطَر والعقول.



(١٥٢) الزهد الكبير للبيهقي ١/ ٣٢١.



الشيطان الخبيث!

ويرى أن بعض الناس يرفض ضميرهم الخطيئة إن كانت مكشوفة، فلا مانع عنده من أن يعرض خطايا معينة بغير أسمائها، بأسلوب يسهل قبوله، بحيث تلبس الخطايا ثياب فضائل، ويُوقعهم في فخ التبرير.

فالذي يزني ويأتي الفواحش يسمي ذلك حرية شخصية.

والسارق المختلس يسمي ذلك ضرورة للاستعانة بها على تكاليف الحياة والراتب الضئيل.

والطاغية يسمي الظلم حزما يحفظ به وحدة الشعب وتماسكه من الدعوات الطائفية والعرقية.

والمرتشي يسمي رشوته هدية!

والكاذب يسمي كذبه مزحة وطرافة.

وشارب الخمر يسميها بغير اسمها كما في الحديث:

«ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها» (١٥٣).

وصدق ابن القيم حين قال:

(وكلُّ أهلِ نِحلَةٍ ومقالةٍ يكسونَ نِحلَتَهم ومقالتَهم أحسَنَ ما يَقدِرونَ عليه من الألفاظ، ومقالَةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظ. ومن رزقه الله بصيرةً فهو يكشفُ بها حقيقَةَ ما تحتَ تلكَ الألفاظِ من الحقِّ والباطلِ، ولا تغترُّ باللفظ، كما قيل في

(١٥٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٥٤٥٣.

هذا المعنى:

تقولُ هذا جَنى النَّحلِ تمـــدحُهُ ... وإنْ تشأ، قلتَ: ذا قَيءُ الزَّنابير.

مدحاً وذمّاً وما جاوَزْتَ وصْفَهُما ... والحقُّ قد يَعتريه ســـوءُ تعبير)[١٥٤]

٥. التزيين الإعلامي:

إذا كانت صحبة السوء قادرة على إهلاك الإنسان وهم عدد قليل وكلامهم تأثيره محدود، فكيف بالإعلام الذي يشاهده الملايين في لحظة واحدة، ويبُثُّ ما يشاء بشكل منتظم وممنهج ومدروس، وكيف يكون تأثيره السلبي إن بث ما يخالف الحقائق والأعراف الصحيحة.

إنه بلا شك سيكون من أقصى وأقسى أنواع التزيين وأشدها خطورة.

إنه السحر!

قد تصل المؤثرات الإعلامية المحيطة بالعقل البشري إلى مرحلة من مراحل تزييف الوعي حتى كأنه السحر.

والسحر هو قلب لطبائع الأشياء في نظر المسحور دون أن تتغير طبيعة الأشياء في الواقع.

والمسحور لا يصدق الحقائق بعد ما رآى من السحر، بل يجد أي قول أو فعل يخالف ما رآه بعينيه المسحورتين إنما هو تحايل على الحقيقة.

وحين تراجع النماذج التاريخية للاستبداد تجد أن فرعون قد استخدم السحر حقيقة لقلب الحقائق للناس، وتغييب ما أودعه الله في عقولهم من منطق وفطرة في الحكم على

(١٥٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ١/ ١٤١- ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت.



الأحداث.

لقد استعمل فرعون السحرة حتى رأى الناس في من يريد أن يحررهم من بطشه وفساده هو الساحر، وأن **نبي الله** موسى هو من يُظهِر في الأرض الفساد! انقلبت الصورة! وسُحِرَت عقول الناس حتى انقلبت الحقائق في أدمغتهم المسحورة، ورأوا المستبد قاتل الأطفال ربَّهم الأعلى، ومن أراد تحريرهم من الاستبداد والطغيان عدوا تجب محاربته!

وانظر كيف أن كفار مكة مع علمهم التام بأن الله هو من بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يجارُ عليه إلا أنهم قد أشركوا بالله، ولذا جاءت الآية التالية لإقرارهم بذلك تحمل تعجبا قرآنيا في قوله:

﴿ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٩] .

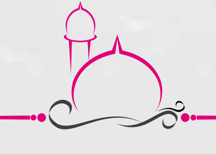
انظر كيف تمكن السحر من عقولهم، و قلب لهم الحقائق البديهية حتى أشركوا بالله وعبدوا غيره؟!

كيف خُدِعوا هذا الخداع الساذج؟!

أين ذهبت العقول؟!

إنه السحر!

وهو نفس ما سيحدث مع **المسيخ الدجال** الذي يسحر الناس بإمبراطوريته الإعلامية، فسيكون معه سبعون ألفا من يهود أصفهان، مع ما نعرفه عن اليهود من سيطرة على وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، مما يجعل فتنة الدجال أقوى وأثره أخطر!



سَحَرَة اليوم!

ذكر المفكر الإسلامي المغربي **الإدريسي** في إحدى محاضراته الواقعة التالية:

(فشلت شركة تبغ أمريكية عملاقة (L&M) في منافسة الشركات التي سبقتها في السوق، وقد ظهرت تلك الشركة في القرن العشرين، وكان شعار تلك الشركة أزرق وأبيض، وبعدما فشلت الشركة في غزو السوق، عقد مجلسها الإداري اجتماعًا توصل فيه إلى أن شركات التبغ القائمة غطت سوق الرجال.

وحينئذ قال لهم مدير الشركة ومستشارها أغزو سوق النساء، ولتحقيق تلك الغاية، بدأوا يتحدثوا عن تحرير المرأة والمساواة مع الرجل في التدخين وبدأت تخرج مظاهرات ومجلات وكتابات.

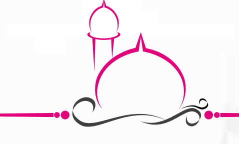
وقد اقترح مستشار على مدير الشركة تغيير ألوان السجائر لأن الأزرق والأبيض ليست ألوان نسائية، فرفض مدير الشركة، وقال: هذا شعار الشركة لن نغيره بل حولوا أذواق النساء إلى ألواننا! فبدأت تظهر الثورة الزرقاء والمرأة الزرقاء وأشياء من هذا القبيل، حتى ارتفعت مبيعات الشركة).

ومثله الخبير الإعلامي الدكتور **أحمد بن راشد بن سعيد**، الأستاذ في جامعة الملك سعود بجدة والذي قال في معرض تعليقه على ما نشرته وثائق ويكيليكس نقلا عن دبلوماسيين أمريكيين، والتي تفيد بأن الدراما الأمريكية الموجهه للشرق الأوسط وبالتحديد المملكة العربية السعودية ساهمت وبشكل كبير في تغيير ثقافة المجتمع السعودي.

فتحت خانة (سري) **وبتاريخ ١١ مايو ٢٠٠٩م**، تسرد برقية صادرة من السفارة الأمريكية بالمملكة، مجريات لقاءات بين دبلوماسيين ومسؤولين إعلاميين في السفارة الأمريكية من جهة، ومسؤولي تحرير ومديري قنوات تلفزيونية سعودية خاصة من جهة أخرى لمناقشة التوجهات الأيدولوجية، مشيرة إلى أن الإعلام الأمريكي الذي يتم تقديمه

عبر فضائيات عربية سعودية مثل **MBC** وروتانا تساهم وبشكل كبير في تغيير توجهات وثقافة المجتمع السعودي، بطريقة عجزت عنها الدعاية الأمريكية المباشرة التي تنتهجها قناة الحرة ومثيلاتها.

وذكرت الوثيقة على لسان أحد المتحدثين في هذا الاجتماع مدى تأثير مسلسلات مثل (**ربات بيوت يائسات**) (**Desperate Housewives**) وأصدقاء (**Friends**) وبرنامج ديفيد ليترمان والمترجمة بالعربية على الشعب السعودي، فلم يعد بالإمكان رؤية بدوٍ في أنحاء المملكة ولكن أطفالا باللباس الغربي، وقد نجحت هذه البرامج في تحقيق شعبية كبيرة.



المكيدة الثالثة
الشــقاق

انظر كيف التقابل بين الملائكة والشياطين في شأن العلاقات الإنسانية، وكيف تدعو الملائكة للمتسامح، وكيف تؤز الشياطين المخاصم، وكأنه صراع بشري لكل طرف فيه أعوان ملائكية أو شيطانية!

قال رسول الله ﷺ:

«لا يحل لمسلم أن يهجر مسلما فوق ثلاث، فإنهما ناكبان عن الحق ما دام على حرامهما، فأولهما فيئا سبقه بالفيء كفارة ، فإن سلَّم و لم يرُدَّ عليه سلامه ردَّت عليه الملائكة، وردَّ على الآخر الشيطان، فإن ماتا على صِرامهما لم يجتمعا في الجنة أبدا» (١٥٥) .

ويبدو لك من هذا الحديث أن من أهم وظائف الشيطان: **التحريش بين المسلمين**، وقد كشف هذا رسول الله ﷺ حين قال :

«إن الشيطان قد أيِس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم» (١٥٦) .

وهي مثابرة وعدم استسلام للهزيمة، فإن فاته أن يعبده الناس، فلن يفوته التحريش، والتحريش هو خبر لمبتدأ محذوف أي هو في التحريش، أو ظرف لمقَدَّر أي يسعى في التحريش (بينهم) أي في إغراء بعضهم على بعض والتحريض بالشر بين الناس من قتل وخصومة، أي أن فرصة الشيطان السانحة بعد ضياع فرصة أن يُعبد من دون الله هي في التحريش وإذكاء العداوات والخصومات والشحناء والحروب والفتن.

ولهذه الوظيفة العدوانية مكانة عظيمة وسبق رهيب لدى إبليس حتى أنه ليكافئ الشيطان الذي فرَّق بين المرء وزوجه بأن يلتزمه ويعانقه حين يزف إليه خبر هذا الإفساد.

---

(١٥٥) السلسلة الصحيحة رقم : ١٢٤٦.
(١٥٦) حسن: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٣١.



وهو النزغ كما في لفظ القرآن:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٥٣] .

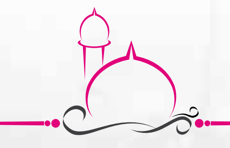
قال **الطاهر بن عاشور** في التحرير والتنوير في أصل كلمة النزغ:

(إطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة : شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة) [١٥٧] .

ولا يقتصر نَزْغ الشيطان على المتخاصمين، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة، ألم يَقُل **يوسف**: ﴿بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] .

قال **قتادة**:

(نزغ الشيطان: تحريشه) [١٥٨] .



(١٥٧) التحرير والتنوير ٩/ ٢٢٩.
(١٥٨) الدر ٥/ ٣٠٢- ٣٠٣.

الأسلحة المضادة!

لم يتركك الله وحيدا في ساحة المعركة بل أرشدك إلى مواطن قوتك، وهي كالآتي:

١. أحسن الكلام!

﴿ لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] .

والسلاح القاتل الذي تواجه به الشيطان هنا هو: لين الكلام! فلا تلجأ إلى اللفظ القاسي ولو كنت تجادل عن دين الله، فلا شك أن المعارض كَارِهٌ لمبدئك، فإن جمعت مع ذلك القسوة والغلظة، واستخدمت اللفظ الخشن والعبارة الجافة، فسيتحول الخلاف بينكما من خلاف على مبدأ إلى نزاع شخصي.

قال تعالى:﴿وَلَا تَسۡتَوِى ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] .

قال ابن القيِّم مفسِّرا:

(فالشَّيطان ينزغ بينهم إذا كَّلَم بعضهم بعضا بغير الَّتي هي أحسن، فرُبَّ حَرْبٍ وقُودها جُثَثٌ وهَامٌ، أهاجها الْقَبِيح من الكلام) [(١٥٩)].

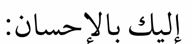
وما أروعَ قول الشاعر:

يا من تُضَايِقُه الفعالُ مِن التي ومِنَ الذِي ... (ادْفَع) فَدَيْتُك بالتِي حتَّى تَرَى (فَإِذَا الذِي)

ولذا كان عبدالله بن عون –وهو الذي وصفه أبو نعيم في الحلية بأنه **الحافظ للسانه الضابط لأركانه**–لا يغضب، فإذا أغضبه الرجل قال: **بارك الله فيك**[(١٦٠)].

وهنا تنزع الكلمة الطيبة فتيل الشقاق، وتطفئ نار الشجار حين تَرُدُّ على الإساءة

(١٥٩) الطرق الحكمية ص ٤١ - مكتبة دار البيان.
(١٦٠) حلية الأولياء ٣/ ٣٩.



إليك بالإحسان:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ .

قال الحسن البصري يوصيك وينزع السلاح من يد أعاديك:

(التي هي أحسن: لا يقول له مثل قوله، بل يقول له: يرحمك الله .. يغفر الله لك)(١٦١).

٢. لا تختلفا!

فرقة الظاهر والباطن!

ومن حرص الإسلام على الوحدة والائتلاف أنه نهى عن الفرقة والخلاف ولو كانت ظاهرية! فعن أبي ثعلبة الخشني ﷺ قال:

كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا في الشعاب والأودية فقال رسول الله ﷺ:

«إن تفرُّقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان».

فلم ينزلوا بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يُقال: لو بسط عليهم ثوب لعمَّهم(١٦٢).

فانظر كيف نسب الفرقة **-ولو كانت شكلية-** إلى الشيطان، والسر أن تقارب الأجساد يؤدي إلى تقارب الأرواح، ولذا فإن الشيطان يتمنى أن يفرِّق بين المسلمين ولو كان ذلك ظاهريا وفي المكان فحسب، ولهذا جاءت الوصية برص الصفوف في الصلاة لئلا يتسلل منها العدو:

(راصُّوا الصفوف فإن الشيطان يقوم في الخلَل)(١٦٣).

---

(١٦١) جامع البيان في تأويل القرآن ١٧/٤٦٩.
(١٦٢) رواه أبو داود حديث رقم: ٢٦٢٨ وهو في مشكاة المصابيح رقم: ٣٩١٤.
(١٦٣) صحيح: رواه أحمد عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٤٥٤

وفي سنن أبي داود:

(والله لتقيمُنَّ صفوفكم أو ليخالِفُنَّ الله بين قلوبكم)

قال الراوي عن امتثال الصحابة للأمر على الفور:

فرأيتُ الرَّجل يكون منكبه بمنكب صاحبه، وكعبه بكعبه[١٦٤].

ولقد أجزل الله المثوبة لمن وصل صفا وسدَّ خللا في الصلاة فأنزل عليه رحماته واستغفرت له الملائكة، فقال ﷺ:

«إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف، ومن سدَّ فُرْجة رفَعَه الله بها درجة»[١٦٥].

وحتى في أبسط الأمور وأقلها وفي الأمور الحياتية المعاشية التي نتعاطاها.. بيَّن لنا عليه الصلاة والسلام أن البركة تكون في الجماعة والاجتماع في حديث وحشي بن حرب أنهم قالوا: **يا رسول الله! إنا نأكل ولا نشبع!**

قال: **فلعلكم تأكلون متفرقين؟!**

قالوا: **نعم.**

قال:

«فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»[١٦٦].

فأي بركة أعظم إن كنا في أمر الطعام! فلو اجتمعنا على ما هو أجل وأعظم من طعام لكان خيرا لنا وأكثر توفيقا.

وقد تتابعت النصوص الشرعية لتؤكِّد على وجوب الوحدة ونبذ الفرقة، فإن (**يد الله**

---

(١٦٤) حسن: رواه عن النعمان بن بشيى كما في صحيح أبي داود رقم: ٦٦٨.
(١٦٥) حسن: رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن عائشة كما في صحيح أبي داود رقم: ٦٨٠.
(١٦٦) حسن: كما في صحيح ابن ماجة رقم: ٣٢٧٧ وسلسلة الأحاديث الصحيحة: ٦٦٤.

مع الجماعة)[١٦٧]، وصلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة، وفي رواية بسبع وعشرين درجة، و(إنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية)، وعلَّمنا الحبيب أنَّ «مَنْ هَجَر أخاه سَنَة فهو كسفك دمه»[١٦٨] .

عمر سيفٌ صارم

عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لناس من قريش:

(بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تُحومِيَت المجالس، وأيم الله!

إن هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم..

سريع في ذات بينكم ..

ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان قد قسموا الإسلام أقساما ..

أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا، فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس)[١٦٩] .

هاهو عمر ﷺ يفطن لحيلة شيطانية مؤدية إلى تفرق الأمة، فحذَّر منه في الحال، ومنعه لما يخشى من نتائجه في المآل، ألا وهو التشرذم والانغلاق والتحزب المؤدي إلى تعدد الولاءات، وتفرق الأمة إلى طوائف وجماعات، وإعجاب كل فرقة بما تهواه من العقائد والمقالات، وسوء الظن بالمخالف، ولو في الوسائل والاجتهادات.

وهذا باب من أبواب سدِّ الذرائع الذي أعمله، لأن التفرق في المجالس، والانغلاق عن المجتمع ينتج عنه تفرق في الرؤى، فينتسب أهل كل مجلس إلى البارزين منهم، ويتعصبون لهم، ويعجبون بآرائهم وأقوالهم.

(١٦٧) سنن الترمذي ٢١٦٦ وقال هذا حديث حسن غريب وقال محقق جامع الأصول ٦/ ٥٦٤ حسن بشواهده.
(١٦٨) صحيح: رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والحاكم عن أبي خِراش حدرد بن أبي حدرد الأسلمي كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٨١.
(١٦٩) تاريخ الطبري ٢/ ٥٧٢.

إن الاجتماعَ من مقاصد الشريعة العظيمة، وقد تسقطُ بعض الأحكام من أجل تحقيق الاجتماع ، وربما تُرك القول الراجح وفُعِل المرجوح لأجل الاجتماع، فقد كان **عثمانُ** رضي الله عنه يُصلي في الناس بمنى أربعاً، والسنة أن يُصلي قصراً، مع ذلك **ابن مسعود** رضي الله عنه كان يقول: سنة المصطفى ﷺ أن يصلي ركعتين لا غير.

قيل له: يا عبد الله بن مسعود! تقول هذا وأنت تصلي مع عثمان بن عفان أربع ركعات ! لماذا؟!

قال :

(يا هذا ! الخلاف شر! الخلاف شر ! الخلاف شر)[170].

٣. لا نميمة!

والنميمة قنبلة موقوتة ينسف بها الشيطان روابط الأخوة، وهي نار محرقة لرباط المحبة، وقد سُمِّيَت النميمة حطبا لأنها سبب العداوة كما أن الحطب سبب لإشعال النار حتى قيل: عمل النمام أضرُّ من عمل الشيطان لأن عمل الشيطان بالخفاء وعمل النَّمام بالمواجهة، وسُمِّيت **امرأة أبي لهب بحمالة الحطب** لأنها كانت تنقل الحديث بالنميمة، ولشدة ضرر النّمام قال **يحيى بن أبي كثير**:

(إن صاحب النميمة ليُفسِد ما بين الناس في يوم لا يُفسده الساحر في شهر)[171].

لكن ما هي النميمة ؟! وما أشكالها؟!

قال **أبو حامد الغزالي**:

(إنما تطلق في الغالب على من يَنِمُّ قول الغير إلى المقول فيه بقوله فلان يقول فيك كذا، وليست النميمة مخصوصة بذلك، بل حدُّها كشف ما يُكرَه كشفه سواء كرِه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث،

(١٧٠) صحيح: رواه عبد الرحمن بن يزيد كما في صحيح أبي داود رقم: ١٧١٢.
(١٧١) شعب الإيمان ١٣/ ٤٤٨.



وسواء أكان الكشف بالقول أو الكتابة أو الرمز أو الإيماء أو نحوها.

وسواء كان من الأقوال أو الأعمال.

وسواء كان عيبا أو غيره.

فحقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، وينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة للمسلمين أو دفع معصية)(١٧٢).

٤. لا تغتب!

كان الحسن البصري يقول:

(والله للغيبة أسرع في دين الرجل من الأَكَلَة في الجسد)(١٧٣).

والأَكَلة هي الداء الذي إذا سرى في اليد أو في القدم أفسد البدن كله، فالغيبة تسري في دين الرجل وتلتهمه وتتلفه أسرع مما تفعل الأكلة بالبدن.

تجده مواظبا على صيام النهار وقيام الليل، ثم لا يمضي عليه يوم إلا ويجري على لسانه من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناته، فكيف ينجو؟!

وحذَّروا من الغيبة لأنها باب إلى البغضاء والفرقة، وهنا يكشف شيخ الإسلام ابن تيمية عن مكائد شيطانية وحلل تنكرية يتزيَّن بها الشيطان ليوقعك في الغيبة بصورة غير مباشرة، فيقول:

(فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون، أو فيه بعض ما يقولون ؛ لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه، فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة وطيب المصاحبة، وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم .

(١٧٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٦
(١٧٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٣



تارة في قالب ديانة وصلاح فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير، ولا أحب الغيبة، ولا الكذب ؛ وإنما أخبركم بأحواله . .

ويقول : والله إنه مسكين أو رجل جيد ؛ ولكن فيه كيت وكيت .

وربما يقول : دعونا منه الله يغفر لنا وله ؛ وإنما قصده استنقاصه وهضم لجانبه .

ويُخْرِجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقا؛ وقد رأينا منهم ألوانا كثيرة من هذا وأشباهه .

ومنهم من يرفع غيره رياء فيرفع نفسه فيقول: لو دعوت البارحة في صلاتي لفلان؛ لما بلغني عنه كيت وكيت ليرفع نفسه ويضعه عند من يعتقده .

أو يقول: فلان بليد الذهن قليل الفهم ؛ وقصده مدح نفسه وإثبات معرفته وأنه أفضل منه .

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد .

وإذا أثنى على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه في قالب دين وصلاح أو في قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه .

ومنهم من يُخرِج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به .

ومنهم من يُخرِج الغيبة في قالب التعجب فيقول تعجبت من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت، وكيف فعل كيت وكيت، فيخرج اسمه في معرض تعجبه .

ومنهم من يُخرِج الاغتمام فيقول مسكين فلان غمني ما جرى له، وما تم له، فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف، وقلبه منطوٍ على التشفّي به، ولو قدر لزاد على ما به، وربما يذكره عند أعدائه ليشتفوا به .

وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه .

ومنهم من يُظهِر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول وقصده غير ما أظهر، والله المستعان)[١٧٤].

ولا يستثني الشيطان من هذا الفخ أحدا، ولو كان حافظا لكتاب الله! فيغريه بالوقوع في غيره، ويزيِّن له النيل من خصومه كما قال **الفضيل بن عياض**:

(الغيبة فاكِهة القراء)[١٧٥].

وهو ما أهلكهم في زمان **بِشْر بن الحارث الحافي** فكيف بزماننا! قال رحمه الله فيهم:

(هلَك القُرَّاء في هاتين الخصلتين: الغيبة والعجب)[١٧٦].

ومن هنا .. كان لابد أن نكون هجوميين مع هذا العدو الخبيث، فالهجوم أفضل وسائل الدفاع، فإذا سمعت الغيبة في مجلس فانتصِر للغائب، واردع شيطان المغتاب، واستحضر نية امتثال أمر قائدك .. رسول الله ﷺ :

«من ردَّ عن عِرْضَ أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يومَ القيامة»[١٧٧].

(١٧٤) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٣٨.
(١٧٥) شعب الإيمان ٩/ ١٢١.
(١٧٦) شعب الإيمان ٩/ ١٢٢.
(١٧٧) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٦٢

وفي حديث **أسماء بنت زيد** عن رسول الله ﷺ قال:

«من ذبَّ عن عِرْضِ أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار»(١٧٨).

قال **النووي** في الأذكار:

(اعلم أنه ينبغي لمن سمع غِيبةَ مسلم أن يردَّها ويزجرَ قائلَها، فإن لم ينزجرْ بالكلام زجرَه بيده، فإن لم يستطع باليدِ ولا باللسان، فارقَ ذلك المجلس، فإن سمعَ غِيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حقّ، أو كان من أهل الفضل والصَّلاح، كان الاعتناءُ بما ذكرناه أكثر)(١٧٩).

٥. لا تجادل:

قال **مسلم بن يسار** فاضحا تسلل الشيطان من هذه الثغرة:

(إيَّاكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلَّته)(١٨٠).

فهي إذن ثغرة الشيطان التي ينتظر فتحها في سور القلب ليفسده، وإفساده هنا، لأن الجدال يؤدي إلى العداوة، والشقاق، وقد يقود صاحبه إلى الكذب، والتطاول والتراشق بالألسنة، وردِّ الحق ولو كان واضحا، وكلٌّ من هذه مهلك.

ولعل هذه المهلكات هي التي جعلت صاحبها أبغض الناس عند الله، ويالها من كلمة ثقيلة ووصف مريع! ولكنه وصف النبي ﷺ كما في حديث **عائشة رضي الله عنها**، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«أبغض الرجال إلى الله: الألدُّ الخَصِم»(١٨١).

---

(١٧٨) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن أسماء بنت يزيد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٤٠

(١٧٩) الأذكار للنووي ص ٣٤٣.

(١٨٠) أخلاق العلماء للآجري ١/ ٥٧.

(١٨١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩.

والألدُّ: شديد الخصومة، مأخوذ من لديدَي الوادي، وهما جانباه؛ لأنَّه كلما احتجَّ عليه بحجة أخذ في جانب آخر.

قال **المهلب** كاشفا السبب:

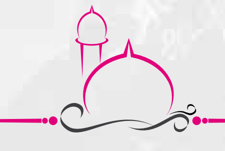
(لما كان اللَّدد حاملًا على المطل بالحقوق، والتعريج بها عن وجوهها، واللّيِّ بها عن مستحقيها، وظلم أهلها؛ استحقَّ فاعل ذلك بغضة الله وأليم عقابه) [١٨٢].

أيها **المحامي** الذي لم يدرس قضيته أو درسها وعرف باطلها ومع ذلك تصدى لها.

أيها **المنافح عن الآراء الباطلة** والعقائد الزائغة يضِلُّ بها العوام، أو ذوو العقول الصغيرة، سواء كان بالتأليف أو بالحديث بين الناس في المجالس.

أيها **المعتدي في الخصومة** بالسباب والكذب ليهزم خصمه، أو يخاصم عنادا ليقهر غيره ويُذِلَّه.

كلكم على خطر!



(١٨٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال ٨/ ٢٥٩- مكتبة الرشد - السعودية - الرياض.

المكيدة الرابعة

اليــأس

اليأس والقنوط ليس حراما يوقعك الشيطان فيه فحسب، بل هو من كبائر الذنوب.

سُئِلَ إبراهيم بن أدهم: ما أكبر الكبائر؟

قال:

(الإياس مِنْ رَوْح الله)(١٨٣).

لكن لماذا؟!

لأن كل هزيمة في الميدان لابد وأن يسبقها هزيمة نفسية في قلوب المقاتلين، وعندها لا يكون للسلاح أي قيمة.

إن اليأس سلاح صغير من الأسلحة التي يستخدمها عدو الله في حربه معنا، وهو لا يقارن بتلك الأسلحة الثقيلة التي يستخدمها الشيطان في معركة الاستفزاز والجلب. من السهل أن تفكَّ قيداً في يد أو رجل إنسان، ولكن.. ماذا لو كان هذا القيد مزروعاً في أعماق نفسه ووجدانه؟

مسيطرا على عقله وتفكيره؟

مُقيِّدا لحركاته وأفعاله؟

هو لا يعرف أين يوجد هذا القيد ولا كيف وُجد،

لأنه كبر فوجد نفسه على هذه الصورة!

---

(١٨٣) المجالسة وجواهر العلم ٦/ ٤٠٥- أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي - جمعية التربية الإسلامية.



١. الوقوع في الذنب:

قال ابن القيم:

(إذا أراد الله بعبده خيراً ألقاه في ذنب يكسره) (١٨٤) .

إذا ندمت على ذنبك، واغتظت من شيطانك، فهممت بالانتقام منه، وكنت حريصا على رد ضربته بضربة أقوى، ونجحت، فقد قلبت الدفة لصالحك، وحوَّلت هزيمتك إلى نصر، وصدق **الإمام النَّسَفي** حين بشَّر المكثرين من الذنوب بقوله:

(وترتفع ألف حَوّبَة بتوبة) (١٨٥) .

ومهما يكن الذنب عظيما، فإن الله لا يُعجِزه شيء. قال **الإمام البوصيري** مخاطبا نفسا بدأ اليأس يتسلل إليها:

يا نفس لا تقنطي من زَلَّة عظُمَت ... إنَّ الكبائر في الغُفْـــــران كاللَّمَم

لعلَّ رحمة ربي حين يقســـــمها ... تأتي على حسب العصيان في القَسَم

٢. كثرة الذنوب..

لما جاء **حذيفة بن اليمان** شاكيا إلى رسول الله ﷺ:

يا رسول الله! إني رجل ذَرِب اللسان، فقال رسول الله ﷺ:

«فأين أنت من الاستغفار يا حذيفة! إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة» (١٨٦) .

(١٨٤) مدارج السالكين (١/ ٣٢٦) .
(١٨٥) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ٢/ ٤٣٨
(١٨٦) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ٢١١٦

وذَرِب اللسان: هو حاد اللسان الذي لا يبالى بما قال. وقد أرشدنا الطبيب الشفيق إلى هذا الدواء الرفيق، والذنب مرض، ولا يطول مرض إلا بغفلة عن دواء أو تهاون في المواظبة عليه.

وما أروع قول **يحيى بن معاذ** في مناجاته يعلِّم الرجاء للمذنبين، ويفتح طاقة أمل لليائسين:

(يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إليك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف)[١٨٧].

٣. تكرار الذنب..

قد يتسبب في استيلاء اليأس على قلب العبد تكرر السقوط، وقد راعى النبي ﷺ الطبيعة البشرية التي لابد معها من نقطة ضعف متكرِّرة:

«ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إن المؤمن خُلِقَ مُفَتَّنا توّابا نَسِيّا، إذا ذُكِّر ذَكَر»[١٨٨].

ووسوسة الشيطان المتنالية في أذن هذا العبد تناديه:

سئمتُ التوبة!

أكلما استقمتُ هويت؟!

أكلما بنيتُ هدمت!



(١٨٧) الإحياء ٤/ ١٥٣.

(١٨٨) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٣٥.

لكن .. كيف لعبدٍ أن ييأس، وهو إنما يكتسب خيريته من تكرار توبته كما شهد له علي ابن أبي طالب حين قال:

خياركم كل مُفَتَّن تواب.

قيل: فإن عاد؟

قال: يستغفر الله ويتوب.

قيل: فإن عاد؟

قال: يستغفر الله ويتوب.

قيل: حتى متى؟

قال: (حتى يكون الشيطان هو المحسور)[189].

اليأس والإحباط والطريق المسدود إذن هو هدف الشيطان الأكبر من وراء تكرار الذنوب، وينسى العبد أن أعظم الذنوب مضمحل إذا أحاطت به رحمة الله، وأن الصغائر إنما تتعاظم بالإصرار.

قال كعب:

(إن العبد ليذنب الذنب الصغير فيحقِره ولا يندم عليه، ولا يستغفر منه، فيعظم عند الله حتى يكون مثل الطَّود، ويعمل الذنب العظيم فيندم عليه، ويستغفر منه، فيصغر عند الله عز وجل حتى يغفر له)[190].

أي ما دام يذنب ويستغفر فليفعل ما شاء، فهل هناك أوسع من هذه الرحمة؟ وهذا

(١٨٩) التوبة لابن أبي الدنيا ص ٣٠٣.
(١٩٠) شعب الإيمان ٩/ ٣٤٩.

هو العبد الأوّاب! قال سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: (الأوّاب الذي يذنب ثم يستغفر، ثم يذنب ثم يستغفر)[١٩١].

أخي..

إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا لحصول يأسك، فقد يكون آخر ذنب قُدِّر عليك، وقد يفتح لك بابا من أبواب الجنة بعد أن فتح لك بندمك بابا من أبواب المغفرة.

٤. طول معاداة الله ورسوله:

لا تيأس من رحمة الله مهما كان تاريخك، وساء ماضيك، ففي لحظة ربانية تأتي الخوارق!

وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه هو خير مثال!

لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»، وهم عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

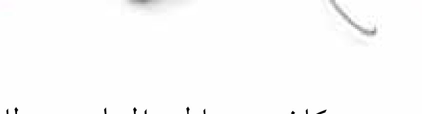
فأما عبدالله بن خطل فأُدرِك وهو متعلِّق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارا وكان أشب الرجلين فقتله.

وأما مقيس فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم قاصف، فقال أهل السفينة لأهل السفينة: أخلِصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا هاهنا.

فقال عكرمة: والله لئن لم ينج في البحر إلا الاخلاص فإنه لا يُنجي في البَرِّ غيره! اللهم إن لك عليَّ عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوا كريما، فجاء فأسلم.

---

(١٩١) شعب الزهد ٢/ ٤٥٧- أبو السَّري هَنَّاد بن السِّري ط دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.



وكان من صالحي المسلمين، ولما رجع قام إليه رسول الله ﷺ فاعتنقه، وقال :مرحبا بالراكب المهاجر.

ولما أسلم كان المسلمون يقولون :هذا ابن عدو الله أبي جهل !فساءه ذلك، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ لأصحابه:

«لا تسبوا أباه، فإنَّ سبَّ الميت يؤذي الحي».

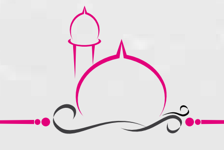
ولما أسلم سعى في التكفير عن سيئاته وتعويض ما فاته، فقال :**يا رسول الله..لا أدع مالا أنفقت عليك إلا أنفقت في سبيل الله مثله.**

ولما كان يوم اليرموك قال عند احتدام القتال وفرار البعض:

قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفرُّ منكم اليوم! ثم نادى :من يبايعني على الموت؟! فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قُدّام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعا جراحة وقُتِلوا إلا ضرار بن الأزور[١٩٢].

وروى الزهري أن عكرمة بن أبي جهل يومئذ كان أعظم الناس بلاءً، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه، فقيل له :اتق الله، وارفق بنفسك .فقال :كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى، فأبذلها لها، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله؟ لا والله أبدا. قالوا :فلم يزدد إلا إقداماً حتى قتل، رحمه الله تعالى[١٩٣].

فاللهم توبةً عكرمية مختومة بشهادة جهادية!!



(١٩٢) أسد الغابة ٢/ ٢٨٢.
(١٩٣) أسد الغابة ٢/ ٢٨٢.

الأسلحة المضادة

ومن أعظم ما تحارب به يأسك وتقضي به على قنوطك:

١. الدعاء

من جمع الله عليه قلبه في لدعاء لم يرده، واسمع قصة الانتصار بطلها عامر بن عبد قيس، فقد سأل ربه -عز وجل- أن يُهوِّن عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتى بالماء وله بخار!

وسأل ربه أن ينزع شهوة النساء من قلبه فكان لا يبالي ذكرا لقى أم أنثى!

وسأل ربه أن يحول بين الشيطان وبين قلبه في الصلاة فلم يقدر على ذلك[١٩٤].

فكيف ييأس من له رب ومحراب!

وما أجمل قول عبد القادر الجيلاني يعرِّفك قيمة الدعاء وبمن تستعين، فقال:

(الخلق يقضون حوائجك يوما أو اثنين أو ثلاثة أو شهرا أو سنة أو سنتين ، وفي الآخر يضجرون منك! عليك بصحبة الحق -عز وجل- وإنزال حوائجك به، فإنه لا يضجر منك ولا يسأم من حوائجك دنيا وآخرة)[١٩٥].

٢. حسن الظن بالله

قال **جابر بن عبد الله** رضي الله عنه:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاثة أيام:

«لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى»[196].

(١٩٤) صفة الصفوة ٢/ ١٢٢.
(١٩٥) مواعظ عبد القادر الجيلاني ص: ١١٩.
(١٩٦) صحيح:رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجة عن جابر كما في صحيح الجامع رقم:٧٧٩٢.

إنها خلاصة تجاربه مع ربه، وعصارة مواقفه مع رحمات الله المنزلة، وهي خير ما يداوي اليأس ويصرفه، وقد عاش مثل هذه الحياة **النَّضْرُ بن عبد الله بن حازم**، فلما احتُضِر قيل له: **أبشِر!** فقال:

(والله ما أُبالي! أَمِتُّ أم ذُهِبَ بي إلى الْأُبُلَّة، والله ما أخرج من سُلْطَان ربِّي إلى غيره، ولا نقلني من حال قطُّ إلى حالٍ إلَّا كان ما نقلني إليه خيرا مما نقلني عنه)[197].

فاسمع كيف كان رحمه الله حسن الظن بربه عند موته كما كان سائر حياته، ومن عاش على شيء مات عليه، ومن لم ير في اختيار الله له إلا الخير في ما مضى سيكون واثقا في حسن اختيار الله له في ما بقي.. لسان حاله كما قال محمد بن عبد الله الكرماني:

قالــوا محمدُ قد كَبِرتَ وقـد أتى ... داعي المنون وما اهتممتَ بزادِ
قُلتُ: الكريم من القبيح لضيفهِ ... عندَ القُــــــدوم مجيئه بالزادِ!

وهي وصية **ابن عطاء** في حكمه:

إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك.

ويقول في مزيد تشويق:

(مستقى الخوف من بحر عدله، ومُستقى الرجاء من بحر فضله، وقد سبق القضاء أن رحمته سبقت غضبه) [198].

ولهذا امتلأ قلب **يحيى بن معاذ** بالرجاء وحسن الظن بالله ففاض علينا قوله:

(إني لأرجو أن يكون توحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، لا يعجز عن محو ما بعده من ذنب) [199].

---

(١٩٧) الإحياء ٤/ ١٥٣.
(١٩٨) شعب الإيمان ٢/ ٣٣٠.
(١٩٩) شعب الإيمان ٢/ ٣٤٩.

وفي توهُّمه لمشهد من مشاهد القيامة يقول راجيا:

(إن قال لي يوم القيامة: عبدي، ما غرَّك بي؟ قلتُ: إلهي .. بِرُّك بي)[٢٠٠] .

ومثله أبو بكر الساسي الواعظ الذي كان يقول في دعائه:

(يا من لا تضُرُّه الذنوب، ولا تُنقِصُه المغفرة، هب لي ما لا يضُرُّك، وأعطني ما لا يُنقِصُك)[٢٠١] .

٣. التسليم لحكمة الله

بعد الأمر بالصبر قال ربنا:

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] .

يقول جلَّ ثناؤه:

فإما نرينك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب والنقمة أن تحل بهم، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فكيف بحالنا نحن؟!

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يَحِلَّ بهم ذلك، فإلينا مصيرك ومصيرهم، لنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقّ بأن ندخلهم النار، ونكرمك بجوارنا في جنات النعيم.

الاحتمالان إذن قائمان!

أن ترى نهاية عدوك أو لا تراها ..

لكن الوعد الإلهي بالعقوبة الإلهية ليس خاضعا للاحتمال.

---

(٢٠٠) صفة الصفوة ٢/ ٢٩٥.
(٢٠١) شعب الإيمان ٩/ ٤٢٤.



الرسالة هنا:

العبد عبدٌ والربُّ رب! وليس للعبد أو من مهماته تحديد ساعة الفرج ولا موعد النهايات ومصارع الطغاة .. بل الأمر في هذا إلى الله وحده .. هذا شأن الإله لا شأن العباد. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وفي هذا خلاصٌ من المشغلة النفسية المرهقة التي يفرضها سؤال: (متى نصر الله) إلى بحبوحة الساحة الواسعة: ماذا فعلت لتستحقه![٢٠٢].

٤. العمل لا النتيجة!

من كرم الله عليك أنك أجير لديه، وكرما على كرم أن جعلك تستحق أجرك باستكمال عملك لا ببلوغ هدفك .. قال تعالى:﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠] .

ولذا كان أعظم الأعمال أجرا ما لا تنتظر له نتيجة دنيوية وثمرة حسية، واسمع:

«أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرَّحِم الكاشِح»[٢٠٣].

وذو الرحم الكاشح هو أحد أهلك أو أقاربك لكنه يكرهك، ومع ذلك فإن أفضل أنواع الصدقات هي الصدقة عليك، والسر أنك بهذه الصدقة تعامل الله فيه، ولا تنتظر منه جزاء ولو كان ثناءً، فتُسقِط التعلق بالخلق من قلبك، وتنقش كلمة الإخلاص في صحيفتك.

---

(٢٠٢) ينابيع الرجاء ٢/ ٣٤ .

(٢٠٣) صحيح: رواه أحمد والطبراني، عن أبي أيوب وحكيم بن حزام كما في صحيح الجامع رقم: ١١١٠

٥. رحمة الله لا عملك!

في أولى الحكم العطائية علامة كاشفة وميزان فارِق:

من علامة الاعتماد على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزلل.

إن يأسك من عفو الله عندما تقع في المعصية هو علامة خلل إيماني، وهزيمة مدوِّية في مواجهة الشيطان.

فيا أيها العبد اليائس!

عندما رجوت عطاء الله وكرمه.. أكنت تعتمد في ذلك على عملك الصالح؟!

فلما فسد عملك وكثرت ذنوبك غاب رجاؤك وحضر قنوطك؟!

إن كنت كذلك فاعلم أنك تنسب لنفسك ما ليس لك، وتعتدُّ بعملك لا بفضله، وتعتمدُ على نفسك لا على ربِّك.

وتذكَّر أنك حين تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، تعني: أن لا حول من المعاصي ولا قوة على الطاعات إلا بالله عز وجل.

وإليك ما لاحظه ابن تيمية عن تجربةٍ وبعد طول تدقيق، فقال في شرحٍ عملي لقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله):

(قد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدِّهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء.وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرا، ويهديه الله لما اختُلِف فيه من الحق بإذنه.

فلا حول ولا قوة إلا به؛ فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته خُذِل!)[٢٠٤].

---

(٢٠٤) درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤- ابن تيمية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.



٦. ممحاة السيئات!

لا يُذهِب السيئات إلا الحسنات، وإذهاب السيئات هنا يشتمل على أمرين:

الأول: إذهاب حبها في النفس، وغرس كراهيتها، بحيث يصير انسياق النفس إلى هجر السيئات سهلا هيِّنا، وفعل الطاعات هو الأصل.

الثاني: ويشمل أيضا محو إثمها إذا وقعت.

وفي في سياق الثناء على أهل الجنة قال تعالى:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢] .

قال **ابن عباس رضي الله عنهما**:

يدفعون بالصالحِ من العملِ السيء من العمل.

علّق **البغوي** على كلمة **ابن عباس** فقال:

وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَـٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] [٢٠٥].

واسمع كلمات **مصطفى صادق الرافعي** يقتل اليأس ويهزم الشيطان في هذه المعركة:

(أيها المؤمن!

إن كنتَ أصبتَ في الساعات التي مضت، فاجتهد للساعات التي تتلو؛ وإن كنت أخطأت فكفِّر، وامْحُ ساعة بساعة؛ الزمن يمحو الزمن، والعمل يُغيِّر العمل ودقيقة باقية في العمر هي أمل كبير في رحمة الله) [٢٠٦].

(٢٠٥) معالم التنزيل في تفسير القرآن - تفسير البغوي ٣/ ١٨ - دار إحياء التراث العربي -بيروت.

(٢٠٦) وحي القلم ١/ ٢٨٦-٢٨٧ - دار الكتب العلمية.

المكيدة الخامسة
التـــدرج

المصيبة أن يمدَّ الشيطان لنا طرف الخيط، فنسير نحن خَلْفه حتى نقع في المصيدة! فإياك أنْ تقبل منه طرف الخيط؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر على ما بعده.

قال سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [النور:٢١] .

ففي هذه الآية بيان للطريقة التي يتعامل بها الشيطان مع ضحاياه، فهو لا يهجم عليهم مرة واحدة ليخرجهم من النور إلى الظلمات، ومن الطاعات إلى المعاصي، بل يتدرج للوصول إلى هدفه.

والبداية دائما ما تكون خبيثة ماكرة ..

خطوات قصيرة ..

أفعال بريئة ..

مباحات لا إثم فيها ..

لكن الوجهة النهائية والمستقر الأخير: الفحشاء والمنكر.

إن وسائل الشيطان تتعدد، وقد يبدو أحيانا أنها متناقضة، ولكن يجمعها هدف واحد، وهو إسقاط الفريسة في الفخ وإصابة الإيمان في مقتل.

يُغير الشيطان في بعض الأحيان على العبد غارة مفاجئة سريعة لا يكون الشخص قد استعد لها، وفي أحيان أخرى يعمل وفق خطة طويلة الأمد في تدرج متأنٍ لا تشعر به الضحية، والتدرج يلزمه وقت طويل وصبر المثابرين، لكن الشيطان لا يعبأ بالوقت مهما طال مادام في النهاية سيصل إلى مبتغاه، ولا يشغل المقاتل طول المعركة مادام في النهاية سينتصر.

وَمثَل الشيطان في هذا كمثل من يلقي جرعة سم بسيطة لا يُرى أثرها إلا بعد حين.. جرعة قليلة لكنها دائمة ومستمرة، وتزداد تأثيرا بمرور الوقت حتى تقضى على الضحية في نهاية الطريق، وعمل الشيطان هنا بمثابة عملية نحت في المقاومة الإيمانية الصلبة، نحتٌ يُضعِف قوة القلب شيئا فشيئا، ليكون السقوط غدا أو بعد غد.. وقطرة الماء تنحت في الصخر مع الوقت رغم عذوبتها، ونسمة الريح تزيل الجبال بمرور الزمن رغم رِقَّتها.

أما المستهدَفون بهذا السلاح فهم أقوى الناس إيمانًا وأعظمهم هداية، ومشوار الألف ميل يبدأ بخطوة، والمهم عند عدوك: كسر الحاجز النفسي بينك وبين المعصية حتى تصغر في عينك وتسهل على قلبك، فالاستهانة بالذنب هي مراد الشيطان وبغيته، وكسر الحاجز النفسي بينك وبينه، فيهوِّن الشيطان المعصية في نفسك تارة، وينسيك ذنبك تارة أخرى، فإذا أوقعك في الصغيرة كانت جسرًا للوصول بك إلى الكبيرة، ولقد أشار النبي ﷺ إلى هذا التدرج، فيما رواه **الإمام أحمد** عن **سهل بن سعد** ﷺ أن النبي ﷺ قال:

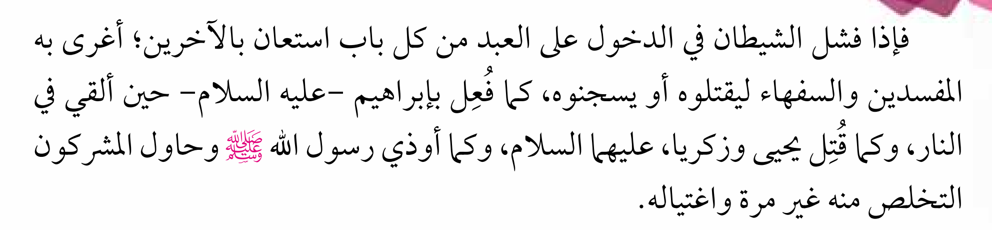
«إياكم ومحقِّرات الذنوب! فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادي، فجاء هذا بعود وهذا بعود حتى أنضجوا خبزهم، وإنَّ محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبه تهلكه»[٢٠٧].

ويساعد على هذا أن من صفات الشيطان أنه: مثابر، نشيط، لحوح، دؤوب في عمله،لا يثنيه فشل المحاولة عن الاستمرار، ولا ييأس مهما علا قدر ضحيته بين الأبرار.. ماضٍ في إغوائه .. ومن لم يقو على تدنيس جوارحه فليدنِّس فكره اليوم، وسيقود الفكر الجسد حتما ولو بعد حين!!

وربما عرض الفكرة الواحدة المرة بعد المرة، ولا ييأس مهما قوبل إغراؤه بالرفض، فبكثرة الضغط يلين الحديد ويذوب الجليد.

---

(٢٠٧) صحيح: رواه أحمد كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٨٩.



فإذا فشل الشيطان في الدخول على العبد من كل باب استعان بالآخرين؛ أغرى به المفسدين والسفهاء ليقتلوه أو يسجنوه، كما فُعِل بإبراهيم -عليه السلام- حين ألقي في النار، وكما قُتِل يحيى وزكريا، عليهما السلام، وكما أوذي رسول الله ﷺ وحاول المشركون التخلص منه غير مرة واغتياله.

فإذا تتابع فشله لجأ إلى الباب الأخير والسلاح الباقي الوحيد:
أتى العبد من باب أنه لا يقدر أن يأتيه!! فمن باب الإعجاب بالنفس غزاه،
ومن مدخل الغرور صرعه وأرداه.

وإليكم بعض ساحات هذه المعركة:

١. الخمر:

قال رسول الله ﷺ:

«ما أسكر كثيره فقليله حرام».

وإنما حرَّم الله القليل الذي لا يسكر؛ لأنه ذريعة إلى المسكر، وهذا من باب سد الذرائع ومنع الأشياء التي توصل إلى الغايات، فالقليل وإن كان لا يسكر فإنه حرام.

فلا يقبل الإسلام منك الجرعة الأولى وإلم تؤدِّ إلى السُّكْر، بل قطع الطريق على الشيطان، وعدم تحديد هذه الجرعة هو غاية الحكمة، ذلك أن الجرعة التي تُسكر تختلف من شخص لآخر، ومن نوع خمر إلى آخر، ومن هنا كان ربط التحريم بالجرعة التي تُسكر محالا، وكان لابد من الاحتياط، وتكليف البشر بما يعرفون، ولذا جاء الأمر واضحا حاسما جازما.

والتدرج في السقوط واضح جدا في إدمان الخمر، فالرحلة تبدأ بكأس وتنتهي بكارثة.. تبدأ تطفلا وتنتهي إدمانا مهلكا، وفي الحديث :

«من مات وهو مُدمِن خمر لقي الله وهو كعابد وثن»[٢٠٨].

وهنا تساؤل مشروع يُظهِر الحكمة البالغة:

(فإن قيل: إن الشراب حلال في نفسه، ولكن الله تعالى نهى أن يُشرب منه ما يزيل العقول!!

قيل: فينبغي أن تكون الشربة التي تزيل العقول وتُسكِر معلومة يعرفها كل شارب، إذ غير جائز أن يحرِّم الله على خلقه شيئا، يتعبَّدهم به ولا يجعل لهم السبيل إلى معرفة ما حرَّم!

ومعلوم أن طباع الناس مختلفة، فقد يسكر الواحد بالمقدار الذي لا يسكر صاحبه بشرب مثله!! وإذا قيس هذا بطبائع الناس لم يضبط ولم يُعلم، والتعبد لا يقع إلا بالأمر المعلوم، وإلا لم تقم له الحجة، وما أدى إلى هذا كان بادي العوار، ظاهر الفساد!)[٢٠٩].

٢. النظرة:

سلسلة متصلة الحلقات إذا أمسكت بحلقة جرَّتك إلى أختها حتى نهاية المشوار، فلا تستطيع إيقافها أو مقاومتها.

لا تستطيع أن تغلق بابا إن فتحته، فإن انفتح انهال عليك ما لا تقوى على دفعه، ولا تستطيع إيقافه، كما قيل:

كلُّ الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر.

و لكن هل كل الحوادث بالفعل مبداها من النظر؟!

أم أن هناك ما يسبقها؟

(٢٠٨) صحيح: رواه الطبراني وأبو نعيم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٤٩ .
(٢٠٩) الخمر والمخدرات في ضوء الحديث النبوي ص: ٣٨ – د سعد المرصفي – ط مكتبة النار الإسلامية ومؤسسة الريان ط:١.

ما هذا الذى يسبق النظرة؟

نعم! هناك ما يسبق النظر، لا يسبقه فحسب، بل يدفع اليه ويرغِّب فيه، ويطلبه ويشتد فى طلبه، إنها خواطر السوء التى تدور فى خلد الإنسان.

إن خطوات الشيطان فى هذا الباب من أمكر ما يكون وأشـــد ما يكون، تبدأ بخاطر يتردد فى النفس، ويهيم في الضمير لا يُلقي له العبد بالا، ولكنه إذا تهاون معه جرَّه إلى ويلات الجحيم، وعذابات لم تخطر ببال، فلم يكن يتخيل أن يدمـــن موقعًا إباحيًا أو يديم النظر للنساء فى الطرقات أو تسيطر عليه شهوة لا تنقطع.

أول خطوة للشيطان فى هذا الباب وأول زلة يقع فيها العبد هي: الخاطر أو التفكير، التفكير فى ما حرم الله من الصور والخيالات المهيجة للشهوة، مع الاسترسال في الأمنيات والأوهام المثيرة، فيتخيل الشاب حتى تشتد شهوته، ثم يتمنى ويتمنى حتى يصير فى حالة لا يستطيع فيها أن يكبح جماح شهوته أو أن يسيطر على نفسه، وعندما يشعر بالألم أو وخزات الضمير يأتي له الشيطان ويقول إن التفكير مرفوع عن بني آدم (**ما حدَّثت به أنفسها**)، والقلب يهوى ويتمنى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

قيل لبعض الحكماء: ما سبب الذنب؟!

(قال: الخطْرة فإن تداركت الخطْرة بالرجوع إلى الله ذهبت، وإن لم تفعل تولَّدت عنها الفكرة، فإن تداركتها بالرجوع إلى الله بطلت وإلا فعند ذلك تخالط الوسوسة الفكرة، فيتولد عنها الشهوة، وكل ذلك بعد باطن في القلب لم يظهر على الجوارح، فإن استدركت الشهوة وإلا تولَّد منها الطلب، فإن تداركت الطلب وإلا تولَّد منه الفعل)[٢١٠].

---

(٢١٠) ذم الهوى ص: ١٤٤-١٤٥.



هذه خطة شيطانية مذهلة ذات خطوات عشرة متدرِّجة ناجحة!

استخدم فيها الشيطان مكره وخداعه، وانتقل بصاحبها من أعالي الدرجات إلى أسوأ الدركات، وكل خطوة لها تبرير منطقي وحُجَّة مقنعة، وقد ذكرها وهب بن منبِّه، وفيها:

(أن عابدا كان في بني إسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بِكرا، فخرج البعث عليهم، فلم يدروا عند من يخلِّفون أختهم، ولا من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها، فأجمع رأيهم على أن يخلِّفوها عند عابد بني إسرائيل، فأتوه فسألوه أن يخلِّفوها عنده، فتكون في كنفه وجواره حتى يرجعوا، فأبى ذلك، وتعوَّذ بالله عز وجل منهم ومن أختهم، فلم يزالوا به حتى أطاعهم، فقال: **أنزِلوها في بيت حذاء صومعتي** (خطوة ١).

فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا، وتركوها فمكثت في جوار ذلك العابد زمانا ينزل إليها بالطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يُغلِق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها، فتخرج من بيتها، فتأخذ ما وضع لها من الطعام.

قال فتلطَّف له الشيطان، فلم يزل يرغِّبه في الخير، ويعظم عنده خروج الجارية من بيتها نهارا، ويخوِّفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيتَ بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك، **فلم يزل به حتى مشى بطعامها حتى وضعه على باب بيتها ولا يكلِّمها** (خطوة ٢).

قال فلبث بذلك زمانا، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر، وحضَّه عليه، وقال



له: **لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك، فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها، فوضعه في بيتها** (خطوة ٣).

قال فلبث بذلك زمانا ثم جاءه إبليس، فرغَّبه في الخير وحضَّه عليه، وقال له: **لو كنت تكلِّمها وتحدثها، فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة.** قال: **فلم يزل به حتى حدَّثها زمانا يطلع إليها من فوق صومعته** (خطوة ٤).

قال ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال : **لو كنت تنزل إليها، فتقعد على باب صومعتك، وتقعد هي على باب بيتها، فتحدِّثك كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله، فأجلسه على باب صومعته يحدِّثها** (خطوة ٥).

وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها. قال فلبثا زمانا يتحدثان، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والثواب في ما يصنع بها، فقال: **لو خرجت من باب صومعتك، فجلست قريبا من باب بيتها فحدَّثتها كان آنس لها، فلم يزل به حتى فعل** (خطوة ٦).

فلبثا بذلك زمانا، ثم جاءه إبليس، فقال : **لو دنوت من باب بيتها، ثم قال: لو دخلت البيت، فحدَّثتها ولم تتركها تُبرِزُ وجهها لأحد كان أحسن، فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يحدِّثها نهاره كله، فإذا أمسى صعد في صومعته** (خطوة ٧).

قال ثم أتاه إبليس بعد ذلك، **فلم يزل يُزيِّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقَبَّلها، فلم يزل به إبليس يحسِّنها في عينه، ويُسوِّل له حتى وقع عليها، فأحبلها فولدت غلاما** (خطوة ٨).

فجاءه إبليس فقال له: **أرأيت إن جاء إخوة هذه الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟! لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطَّلعوا على ما صنعت بها، ففعل** (خطوة ٩).

فقال له: **أتراها تكتم إخوتها ما صنَعْتَ بها؟! خُذْها فاذبحها وادفنها مع ابنها، فذبحها وألقاها في الحفيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرة عظيمة، وسوَّى عليها (خطوة ١٠).**

وصعد إلى صومعته يتعبد، فمكث بذلك ما شاء الله حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عن أختهم، فنعاها لهم، وترحَّم عليها وبكاها، وقال: كانت خير امرأة وهذا قبرها، فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر، فبكوا أختهم وترحَّموا عليها، وأقاموا على قبرها أياما، ثم انصرفوا إلى أهاليهم.

قال: فلما جَنَّهم الليل وأخذوا مضاجعهم أتاهم الشيطان في النوم، فبدأ بأكبرهم، فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وبموتها، فكذَّبَه الشيطان، وقال: لم يصدقكم أمر أختكم، إنه أحبل أختكم، وولدت منه غلاما، فذبحه وذبحها معه فَرَقا (خوفا) منكم، فألقاها في حُفيرة خلف باب البيت، وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك، ثم أتى الأصغر فقال له مثل ذلك، فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول رأيت عجبا، فأخبر بعضهم بعضا بما رأى، فقال كبيرهم: هذا حلم ليس هذا بشيء، فامضوا بنا ودعوا هذا.

قال أصغرهم: لا أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر إليه، فانطلقوا وبحثوا الموضع فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين، فسألوا عنها العابد، فصدَّق قول إبليس في ما صنع بها، فاستعدَوْا عليه ملكهم، فأنزله من صومعته وقدَّموه ليُصلَب، فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان، فقال:

قد علمتَ أني صاحبك الذي قد فتنتُك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك خلَّصتُك مما أنت فيه، فكفر العابد بالله، فلما كفر خلَّى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال فعند ذلك نزلت الآية: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧](٢١١).

(٢١١) ذم الهوى ١/ ١٥٩-١٦٢.

٣. التبرج:

يخاطب الشيطان كل فتاة:

اكشفي خُصلة من شعرك من تحت الحجاب ..

ارتدي ثيابا تشف قليلا ..

أو ذات ألوان ملفتة تفتن الناظرين..

لا بأس بقليل من الزينة ..

لا ضرر من مكياج خفيف على العينين والوجه ..

خطوة خطوة ..

ليتم التنازل أكثر وأكثر ..

لما دعا قاسم أمين إلى السفور واجهه محمد فريد وجدي فاضحًا سنة التدرج الشيطانية قائلا: **إذا أشرنا اليوم بوجوب كشف الوجه واليدين ، فإن سنة التدرج سوف تدفع المرأة إلى خلع العذار للنهاية في الغد القريب، كما فعلت المرأة الأوربية التي بلغت بها حالة التبذل درجة ضج منها الأوربيون أنفسهم**، وقد صاغ ذلك شعرا الشاعر أحمد محرم فقال:

أغرَّك يا أسـماء ما ظنَّ قاسم ... أقيمي وراء الخِـدر فالمرء واهم
تضيقين ذرعاً بالحجـاب وما به ... سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلامٌ على الأخلاق في الشرق كله ... إذا ما استُبيحت في الخدور الكرائم

وهاجم الشاعر العراقي أهل السفور:

وجـوه الغانيات بلا نقاب ... تصيد الصيد في شَرَك العيون
إذا برَزَت فتاة الخِدْر حَسْرى ... تقود ذوي العقول إلى الجنون

إن الكم التربوي الموروث ليس موجودا في أبناء الجيل الجديد أو قلَّ أثره، والحياء المتراكم من الأجيال السابقة بدأ منسوبه في الاهتزاز، وبالتالي تقل المقاومة، وتسهل مهمة الشيطان، وتبدأ عملية التدهور الأخلاقي والإيماني بأثر أسرع على أفراد هذا الجيل من الجيل الذي قبله.

حدَّثني بعض الإخوة عن أخ سوداني خرج من السودان لدراسة رسالة الماجستير في بريطانيا، وكان في بيئة إسلامية محافظة، وكان أول مرة يرى امرأة متبرجة حين كان على سطح الطائرة، فما كان منه إلا أن تقيَّأ من هول المنظر!! ومضت سنوات أربعة قضاها في ربوع أوروبا دارسا، فلما رجع إلى بلده على الطائرة نفسها أخبر أن أصبح مستغربا لديه إذا وجد امرأة ترتدي الحجاب!! فزالت نفرة قلبه عن المنكر، والوقت في هذه الحالة جزء من الداء لا من العلاج.

٤. العشق الحرام:

والتدرج هنا شرحه شوقي حين قال: **نظرة، فابتسامة، فكلمة، فموعد، فلقاء.**

ومعظم النار من مستصغر الشرر.

صاحب القرآن حين يهوي!!

رجل يحفظ القرآن كاملا .. أتاني بعض إخوانه يخبرونني أنهم في خوف شديد من وقوعه في الفاحشة!! ذلك أن امرأة اصطادته بشباكها وألقت عليه حبال صيودها حتى سقط في فخها واستسلم لهواه، وكانت ابتداء الكارثة أن الله هداها على يديه وانتشلها من براثن الشيطان بسببه!! ثم تعلق بها قلبه وتعلقت به حتى عرضت عليه الحرام مرتين وهو ما يزال يمانع، فماذا يفعلون معه؟!!

إن الصغيرة تجرُّ إلى الكبيرة، والكبيرة تجرُّ إلى الكفر، ولا يسير من الإثم، والمعاصي بريد الكفر.

والمقاومة في البداية سهلة لكنها مستحيلة مع الاسترسال والتتابع ..
والبطولة الحقة هي في إغلاق الباب في وجه الشهوات قبل فتحه وتسلل الشيطان منه.

وصدق **سعيد بن المسيب** حين فضح فخ الشيطان الأعظم بقوله:

(ما أيس الشيطان من أحد قط إلا أتاه من قبل النساء)(٢١٢).

ولذا قال **ابن الجوزي** يبيِّن المستقر الأخير لأول نظرة:

(وبيان ذلك بمثل؛ وهو أن امراة مستحسنة مرَّت على رجلين، فلما عرضت لهما اشتهيا النظر إليها، فجاهد أحدهما نفسه وغضَّ بصره، فما كانت إلا لحظة ونسي ما كان، وأوغل الآخر في النظر، فعلقت بقلبه، فكان ذلك سبب فتنته وذهاب دينه)(٢١٣).

إن النظرة لن تظل نظرة إلا أن تترك أثرا في القلب وتلقي في الوجدان خاطرا لتبدأ السلسلة المتصلة بجهنم!!

مرَّ **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه بجارية وهي تقول:

وهويتُه من قَبل قطع تمائمي ... متمايلا مثل القضيب الناعم

فسألها: **أحرة أنت أم مملوكة؟!** قالت: **بل مملوكة** ، فقال: **تهوين؟!** فتلكأت فأقسم عليها، فقالت :

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها ... قُتِلتْ بحُبِّ محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها إلى محمد بن القاسم، فقال: **هؤلاء والله فتن الرجال، وكم والله قد مات بِهنَّ كريم وعطب بِهنَّ سليم.**

لقد فهم الصديق ما رآه طوال حياته وتتبعه في مسيرة إيمانه ..

---

(٢١٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ١/ ١٩٧.
(٢١٣) ذم الهوى ٥٩.



كم مات بهن كريم حسرة وحزنا ..

مات قلبه بعد حياة ..

ذبل فرحه بعد سرور ..

غار بهاؤه بعد هداه ..

وعطب القلب الحي والنفس الزكية والعقل الذكي حين باع لذة أبدية بشهوة موسمية.

ومثله فعل ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ حين جاءته جارية تشتكي رجلا من الأنصار. قال لها عثمان: **ما قصتك؟!** قالت: **كلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه (أحببته)**، فقال له عثمان: **إما أن تهبها إلى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي**، فقال: **أُشهِدك يا أمير المؤمنين أنها له**(٢١٤).

٥. السرقة:

وكما يتدرج المرء من الشبهة التي لم يُنَصَّ على تحريمها إلى الحرام، فكذلك يتدرج من الصغائر إلى الكبائر.. وهذا بعض السر في قوله ﷺ:

«لعن الله السارق: يسرق البيضة فتُقطَع يده، ويسرق الحبل فتُقطَع يده»(٢١٥).

فقد بيَّن أن السارق لا يبدأ بسرقة النصاب، ولكنه يتدرج إليه بما دونه بالبيضة ونحوها.

والتدرج في الغلول وهو السرقة من الغنيمة، كما يقول رُوَيْفع بن ثابت:

يركبُ أحدُكم الدَّابَّةَ حتَّى إذا نقَصها ردَّها في المقاسِم (الغنائم)، فأيُّ غُلُول أشد مِنْ ذلك؟ ويلبس أحدكم الثَّوب حتَّى إذا أَخْلَقَه ردَّه في المقاسِم، فأَيُّ غُلُول أَشَدُّ مِن

(٢١٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي/ أو الداء والدواء: ١/ ٢٢٠- ابن قيم الجوزية - دار المعرفة - المغرب.
(٢١٥) أخرجه البخاري: (٦٧٨٣)، ومسلم: (١٦٨٧)، من حديث أبي هريرة.

ذلك) [٢١٦].

يأخذ الغنائم ينتفع بها ثم يرُدُّها، ويظن ذلك لا شيء فيه، وهو من الغلول.

٦. الرياء:

يبدأ العمل مخلصا..

يخفيه عن الناس ما يستطيع طامعا في أن يكون من السبعة المستمتعين بظل العرش يوم الحر الأعظم ..

ثم يوسوس لك الشيطان ألا ضرر أن تكشف سرك وتُظهِر عملك..

ثم يستدرجك لحب إظهار العمل وإطلاع الناس عليه..

ثم يرميك في هوة أن تعمل بين الناس، وتكسل من ورائهم، فتكون السريرة أسوأ والباطن أخبث.

وفي تسلسل تدرجه لهدم الإخلاص يقول **سفيان الثوري**:

(بلغني أن العبد يعمل العمل سِرًّا، فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يحب أن يحمد عليه فينسخ من العلانية، فيثبت في الرياء) [٢١٧].

ولعل إبليس قد خصَّص شيطانا لهذه المهمة الخاصة التي يفشي فيها العامل عمله، وهو ما ذهب إليه **أبو سليمان الداراني** حين قال:

(إن لإبليس شيطانا يقال له (المتقاضي) يتقاضى ابن آدم بعد عشرين سنة ليخبِر بعملٍ قد عمله سرا، ليُظهِره فيربح عليه ما بين أجر السر والعلانية) [٢١٨].

(٢١٦) سنن سعيد بن منصور ٢/ ٣١٤ -الدار السلفية - الهند.
(٢١٧) حلية الأولياء ٧/ ٣٠-٣١.
(٢١٨) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٩/ ٢٧٧

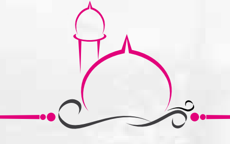
ولهذا رأى **الفضيل بن عياض** ترتيب أولويات العمل كما يلي:

(خير العمل أخفاه؛ أَمْنَعُه مِنَ الشَّيطان وأبعده من الرِّياء)(٢١٩) .



عن **الحسن أنه وعظ** يوما، فتنفس رجل في مجلسه، فقال **الحسن**:

(إن كان لله -تعالى- شهرتَ نفسك، وإن كان لغير الله فقد هلكت)(٢٢٠) .



(٢١٩) الإخلاص والنية ١-٥٦ دار البشاير .

(٢٢٠) تلبيس إبليس ص: ٢٧٥.

٧. التدرج في هدم الطاعات:

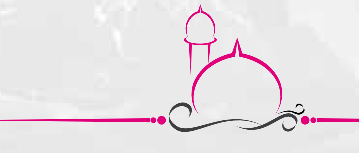
الاعتياد دوما يأتي بالملل، وإذا ملَّ العبد شيئا سهل عليه تركه والتفريط فيه، وهي خطة الشيطان الخبيثة في تدمير العبادة ونزع روحها، وامتصاص حيويتها، والأمر يأتي خطوة خطوة ..

ففي فرض الصلاة مثلا يحوِّلها الشيطان كما في أهدافه إلى عبادة رتيبة، فيمتص روح الخشوع منها كما تنبَّأ النبي ﷺ:

«أول ما يُرفَع من الناس الخشوع»(٢٢١).

وتستطيع مثلا أن تقلب خطة الشيطان لإفساد الصلاة عليه، وتنزع فتيل الملل من يديه بما يلي:

- إجابة النداء فور سماعه لتحظى ببركة السبق جائزة الخشوع ولذة الفهم عن الله.
- تعدد أذكار الصلاة وعدم الاقتصار على ذكر واحد.
- قراءة تفسير ما تقرأ من كتاب الله مع سبب نزوله.
- ذكر المرء للموت حريٌّ أن يجعله يحسِّن صلاته.
- تحسين الصوت بالتلاوة والتغني بها.



(٢٢١) صحيح: رواه الطبراني عن شداد بن أوس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٧٦.

الخطة المضادة

١. ترك الخطوة الأولى:

ونصيحتنا لمقاومة سياسة التدرج هذه التي ينتهجها الشيطان، أن يبتعد الشخص عن الخطوة الأولى بكل حزم، مهما بدت بريئة أو حاول الشيطان أن يقنعه أنها بريئة.

احترس من كذب الشيطان إن قال لك» إنها خطوة واحدة ولن تتكرر أو لن تتطور. فالشيطان لا يقبل الوقوف عند حدود أول خطوة، بل يتقدم بها باستمرار نحو هدفه البعيد.

أخي المستدرَج من جند الشيطان..

من خاف الأسد لم يدخل عرينه..

وكذلك من خاف الحرام لم يقرب حدوده..

من خاف النار لم يدْنُ من اللهب ..

من خشي الفتنة لم يسع إليها بقدميه بل سعى في الهرب..

من خاف حذر..

ومن حذر انتبه..

ومن انتبه نجا..

وأبو حامد الغزالي سبق وأن حذَّرك من الخطوة الأولى في الباطل فاضحا أثرها حين قال:

(الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدفَع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهمَّ، والهمُّ يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تُحسِم مادة الشر من منبعه الأول، وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه)[٢٢٢] .

قال عبدالله بن المبارك:

(من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقِب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقِب بحرمان المعرفة)[٢٢٣].

الخطوة الأولى نظرة!

ولذا أوصاك رسول الله ﷺ بقطع الطريق على الشيطان فقال: لا تُتبع النظرة النظرة، وحذَّرك العقلاء فقالوا: من سرَّح ناظره أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته.

نَظَرُ العيون إلى العيون هو الذي . . . جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا

وأوصى المتزوجين عمليا لا نظريا لينزعوا السكين من يد الشيطان، فقال ﷺ:

«مرَّت بي فلانة فوقع في قلبي شهوة النساء، فأتيت بعض أزواجي فأصبتها؛ فكذلك فافعلوا ؛ فإنه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال»[٢٢٤].

الخطوة الأولى فكرة!

يرميها الشيطان إليك كحبَّة مسمومة يغري بها العصفور ليصرعه، وقد قال رسول الله ﷺ:

«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتَهِ»[٢٢٥].

---

(٢٢٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٠١- ط دار المعرفة.
(٢٢٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٨١.
(٢٢٤) صحيح: رواه أحمد والطبراني كما في السلسلة الصحيحة عن أبي كبشة الأنماري رقم: ٢٣٥.
(٢٢٥) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١١٧.

ذلك أن وسوسة الشيطان لا تنتهي، والاسترسال معها مهلك.

ومن هذه الأفكار ما فيه إغواء العقل واستدراجه لما لم يُخلق له، وقد استدرج الشيطان كثيرا من أهل الإلحاد إلى هذه الدائرة فأهلكهم، واسمع تجربة **إبليس** في هذا الشأن مع **عيسى، عليه السلام**:

(لقي عيسى، عليه السلام إبليس، فقال :أما علمت أنه لا يصيبك إلا ما قُدِّر لك.

قال: **نعم.**

قال: **فارقَ ذروة هذا الجبل، فتَرَدَّ منه، فانظر أتعيش أم لا؟!**

قال عيسى:

إن الله يقول: لا يجرِّبني عبدي، فإني أفعل ما شئت)[٢٢٦].

الخطوة الأولى صحبة!

قد تكون سببا في انحدار، وتودي بإيمانك إلى انهيار. قال رسول الله ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمنا**»، بل وحذَّر من خطورة الجلسة الواحدة بأبلغ التحذير حين قال:

«ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله -تعالى- فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرة، فإن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم»[٢٢٧].

الخطوة الأولى تكبيرة إحرام!

ثم يتبع ذلك فوات الجماعة الأولى، ثم يتلو ذلك خروج الصلاة عن وقتها، ومن وراء ذلك فوات الصلاة وعدم القيام بالفريضة، ولعل ذلك يحدث على مدار أشهر أو أعوام، ولذا حذَّر الصالحون من صحبة من استهان بهذه الفضائل والنوافل، لأنهم يعلمون أن

(٢٢٦) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٣.
(٢٢٧) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة وأبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٠٧.

الشيطان لن يقبل بالفتات، فسمعنا وكيع بن الجراح يقول:

(من لم يدرك التكبيرة الأولى فلا ترْجُ خيره)[٢٢٨].

ومثله إبراهيم التيمي الذي قال:

(إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه)[٢٢٩].

بل وهو ما حذَّر منه رسول الله ﷺ حين رهَّب من التخلف عن الصف الأول، فقال:

«لا يزال قوم يتأخرون عن الصف الأول حتى يؤخِّرهم الله في النار»[٢٣٠].

يبدأ المشوار معك من الصف الأول من الصلاة ويطمح أن ينتهي بك في الصف الأخير في النار، فالحذر الحذر!

خلاصة الموعظة:

من لم يتغير نحو الأفضل سيقوده شيطانه نحو الأسفل، ومن أسلم عجلة القيادة لشيطانه فلا يستغرب أن تكون العاقبة سقر!

الخطوة الأولى سهر!

ولو كان في المباح، ولذا قال رسول الله ﷺ:

«لا سمر إلا لمصَلٍّ أو مُسافر»[٢٣١].

لأنه قد يدفع إلى ضياع الفريضة والنوم عن الصلاة.

(٢٢٨) شعب الإيمان ٣/٧٤.
(٢٢٩) حلية الأولياء ٥/ ٤٢١.
(٢٣٠) صحيح: انظر حديث رقم: ٧٦٩٩ في صحيح الجامع.
(٢٣١) صحيح: رواه أحمد عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٧٤٩٩



٢. حراسة الخواطر.

الخاطر هو ما يدور فى النفس وما يرِد على القلب أو يمرُّ بالذِّهن من الآراء والمعاني، وخواطر السوء هى ما يوسوس به الشيطان للإنسان من تزيين وإعداد للإيقاع في المعصية، وتساعده على ذلك النفس الأمارة بالسوء.

إن أكثر شيء يدلِّس به الشيطان في هذا الباب هو أننا لا نؤاخذ بحديث النفس «**إنَّ اللهَّ تجاوز عن أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا ما لم تعمل أو تتكلَّمْ**».

وهذا صحيح ولكنك إذا تركت العنان لخيالك دون حراسة رتع فيه الشيطان، وزيَّن له الحرام حتى وقع فيه.

وهل بدأ ذنبٌ إلا بخاطر سوء؟!

وكم مرة حدَّثتك نفسك بالحرام وتخيَّلته،فما أفقت إلا على الوقوع فيه والتألم لمقارفته؟!

قال ابن القيم محذِّرا من خطورة الخواطر وتدرجها مسميا لها **بذر الشيطان** فيقول:

(بِذْر الشيطان والنفس فى أرض القلب، فإذا تمكن بِذْرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذ لم يدفعها وهى خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت فى حطبٍ يابس، فلما تمكَّنت منه عجز عن إطفائها)[٢٣٢].

والخواطر هي هوى القلب وتمنيه كما ورد في **صحيح مسلم**:

(كُتِب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان

(٢٣٢) طريق الهجرتين ١/ ١٧٥.

زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويُصدِّق ذلك الفرجُ ويكذبه)(٢٣٣).

وأما كيف تقطع الطريق على شيطانك إذا استدرجك، وتواجهه إذا تعرَّض لك، فهما خطوتان:

الأولى: الحذر من الاسترسال مع خواطر السوء، فاملأ أوقات الفراغ، وقلِّل ساعات الخلوة، فإنها بذرة الفساد ومنها يتسلل، فأبصِر الخطوة الأولى، واستشرف ببصيرة قلبك الخطوة الأخيرة!

الثانية: اجعل مكان خاطر السوء خواطر الإيمان والمحبة والتوكل والخشية، فيتفرَّغ قلبك من تلك الخواطر ويعمر بأضدادها، وكما قال ابن القيم:

(القلب إذا امتلأ بشيء لم يبق فيه متسع لغيره)(٢٣٤).

وقال في موضع آخر عن بذر الشيطان بالأفكار الخبيثة:

(فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة في ما خُلِق له، وفي ما أُمِر به، وفي ما هُيِّئ له، وأُعِدَّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم؛ لم يجد لبذره موضعا)(٢٣٥).

وسبقه قول الشاعر:

أتانى هَوَاها قَبْل أن أعرف الهوى ... فصادف قلْباً خَالِيا فتمكَّنا

٣. اجتناب الشبهات (الزهد):

وهو مفهوم الزهد في تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية:

(الزهد الْمَشْرُوع هُوَ ترك الرَّغْبَة فِيمَا لَا ينفع فِي الدَّار الْآخِرَة، وهو فضول المُبَاح الَّتِي

---

(٢٣٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٧٦.
(٢٣٤) مدارج السالكين ١/ ١٧١.
(٢٣٥) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٣.

لَا يستعان بها على طاعة الله)[٢٣٦].

وابن القيم تلميذ ابن تيمية بنى على قول أستاذه، وشرح طريقة عمل الزهد في القلب، فقال:

(فالزهد: صرف الرغبة إِليه وتعلق الهمة به والاشتغال به عن كل شيء يشغل عنه، ليتولى هو حسم هذه الأسباب عنك. كما قيل: إن بعض المريدين سأل بعض المشايخ فقال: أيها الشيخ، بأَي شيء تدفع إبليس إذا قصدك بالوسوسة؟ فقال الشيخ: إني لا أعرف إِبليس فأحتاج إلى دفعه، نحن قوم صرفنا هِمَمَنا إلى الله، فكفانا ما دونه)[٢٣٧].

فمن أكثَر الوقوع في الشبهات أظلم قلبه لحرمان نور العلم، فوقع في الحرام دون أن يشعر، ولذا قال ابن الجوزي:

(إذا غرق القلب في المباح أظلم فكيف بالحرام)[٢٣٨].

وقوله ﷺ: «**كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»، وهو مثل ضربه لمحارم الله -عز وجل، وأصله أن العرب كانت تحمي المراعي لمواشيها، وتتوعد بالعقوبة لمن اقترب منها، فالخائف من عقوبة السلطان يبعد بماشيته عن ذلك الحمى لأنه إن قرب منه، فالغالب الوقوع فيه لأنه قد تنفرد الفاذة وتشذ الشاذة، فالحذر يقتضي أن يجعل بينه وبين ذلك الحمى مسافة يأمن فيها وقوع ذلك .

وهكذا هي محارم الله من القتل والربا والزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف والغيبة والنميمة ونحو ذلك: لا ينبغي أن يحوم حولها مخافة الوقوع فيها.

نقل ابن المنير في مناقب شيخه القبَّاري عنه أنه كان يقول:

(المكروه عقَبة بين العبد والحرام، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام، والمباح

---

(٢٣٦) التحفة العراقية ١/ ٤٤.

(٢٣٧) طريق الهجرتين ١/ ٢٢٥.

(٢٣٨) المدهش ١/ ١٢٧.

عِقبة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه)[٢٣٩].

وهذا الورع له مكافأة عند الله أعلن عنها **محمد بن واسع** حين قال:

(يكفي من الدُّعاء مع الورع اليسير منه)[٢٤٠].

أي أن الله يجيب دعاءك ويحقِّق رجاءك كلما كنت أورع وأتقى .

٤. إياك ومحقِّرات الذنوب

في الحديث الذي مَرَّ يحذِّرنا النبي ﷺ من مقدِّمات السقوط وأوليات الهوي:

«إياكم ومحقِّرات الذنوب»[٢٤١].

ولذا حذَّر النبي ﷺ أحب الخلق إليه عائشة من استحقار الذنوب والتهاون بالعيوب، فقال:

«يا عائشة! إياك ومحقِّرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا»[٢٤٢].

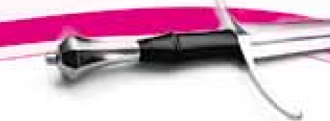
لكن ما خطورة االصغائر؟!

خطورتها هي: الاستمرار فيها مع الإصرار مما يدنيها من الكبائر، فلا يزال الشيطان يسهِّل على العبد محقرات الذنوب فيستهين بها، حتى يكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه.

لما زار **عامر بن ربيعة** ؓ الذي كان قد هاجر مع امرأته إلى الحبشة ثم عاد منها بعد ذلك، وزوجه: **ليلى بنت أبي حثمة، رضي الله عنها،** والتي تُعَدُّ أول من هاجر إلى المدينة من

---

(٢٣٩) فتح الباري ١/ ١٢٧.
(٢٤٠) الورع لابن أبي الدنيا رقم:١٢٥.
(٢٤١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٨٦ .
(٢٤٢) صحيح: رواه الدارمي وابن ماجة وابن حبان كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٣١.



النساء، فوجد النبي ﷺ ابن عامر واسمه عبد الله وهو الذي لم يجاوز خمس سنين في موقف تربوي رائع، واسمع إليه:

عن **عبد الله بن عامر** رضي الله عنه أنه قال:

دعتني أمي يوما ورسول الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا، فقالت: **ها تعال أعطيك**، فقال لها رسول الله ﷺ:

«وما أردت أن تُعطِيَه؟».

قالت: **أعطيه تمرا!!**

فقال لها رسول الله ﷺ:

«أما إنك لو لم تعطه شيئاً كُتِبَت عليكِ كذبة»[٢٤٣].

وهذا التساهل في الصغائر أول خطوة في طريق السقوط المدوي، واسمعوا ابن الجوزي:

(كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة وهي تقدح في الأصول كاستعارة طُلّاب العلم جزءًا لا يريدونه، وقصد الدخول على من يأكل ليؤكل معه.

والتسامح بعِرض العدو التذاذا بذلك.

واستصغارا لمثل هذا الذنب واطلاق البصر استهانة بتلك الخطيئة.

وربَّما قيل له بلسان الحال:

يا من اؤتمن على أمرِ يسير فخان..

كيف ترجو بتدليسك رضا الدَّيان؟!

(٢٤٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة كما في صحيح الجامع: ١٣١٩.

قال بعض السلف:

تسامحتُ بلقمة فتناولتُها، فأنا اليوم من أربعين سنة إلى خلف..

فالله الله!

اسمعوا ممن قد جرَّب.

كونوا على مراقبة.

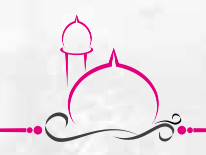
وانظروا في العواقب.

واعرفوا عظمة الناهي.

واحذروا من نفخة تُحتقر.

وشررة تُستَصْغر.

فربَّما أحرقت بلدا)[٢٤٤].



(٢٤٤) صيد الخاطر لابن الجوزي ص: ١٥٥- ١٥٦ بتصرف.

المكيدة السادسة
التسويف وطول الأمل

قال تعالى في حيلة الشيطان التسويفية:

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد:٢٥] .

قال الحسن البصري في تفسيرها:

(أي زيَّن لهم الشيطان الخطايا، ومدَّ لهم في الأمل)(٢٤٥) .

ولذا قال سبحانه في تبكيت أهل النار وهو لون من ألوان العذاب النفسي الشديد:

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ يعني بالتسويف ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو الموت.

وبيَّن أن السبب من وراء كل ذلك الشيطان، فقال: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] والغَرور: الشيطان.

وهي مهلكة عامة يودُّ الشيطان لو أوقع فيها الأمة بأسرها، ففي مسند أحمد:

«صلاحُ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»(٢٤٦) .

وفي رواية أخرى عند ابن أبي الدنيا:

«نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»(٢٤٧) .

البخل إذن من وسائل الشيطان ومعه طول الأمل..

حيث يبعث التسويف وطول الأمل العبد على التعلق بالدنيا لينفصل تدريجيا عن الآخرة!

---

(٢٤٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٤٩.
(٢٤٦) صحيح: رواه أحمد في الزهد والطبراني في الأوسط صحيح الجامع: ٣٨٤٥
(٢٤٧) صحيح الجامع: ٩٧٤٦.

وينشغل بما ضُمِن له من رزق عما خُلِق له من طاعة.

ويبكي على نقصان ماله، ولا يأبه بنقصان أعماله.

ويظل هذا السلاح يشرعه الشيطان نحو قلبك طوال حياتك ولو شِبتَ وصرتَ شيخا، فإنك شابٌّ قوي في صفتين اثنتين.

قال عنهما رسول الله ﷺ:

«لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»(٢٤٨).

وهو ما رآه **أبو عثمان النهدي** فقال في لحظة صدق:

(قد بلغت ثلاثين ومائة سنة، فما مني شيء إلا قد عرفتُ فيه النقصان إلا أملي، فإنه كما هو)(٢٤٩).

وكثرة الأماني مزلة شيطانية كما رآها **الأحنف بن قيس** فقال:

(كثرة الأماني من غرور الشيطان)(٢٥٠).

العبد مشغولٌ بكثرة الأماني والطموحات، فيمنِّي نفسه أبدًا بالبقاء في الدنيا، ويخطِّط حثيثا لما يحتاج إليه من مال وأهل ولذة، فيمسي قلبه راكعا للذاته ساجدا لشهواته، ويصرفه الشيطان عن ذكر الموت، فإن خطر له يوما، سوَّف وقال: **الأيام بين يديك إلى أن تكبر**، فإذا كبر قال: **إلى أن أصير إلى المعاش**، فإن صار إليه قال: **إلى أن أفرغ من بناء هذه الدار، أو أنجز هذه الصفقة**، فلا يزال يسوِّف ويسوِّف، ويؤخِّر توبته يوما بعد يوم، وينشغل بشغل من وراء شغل، إلى أن تخطفه أيادي المنية بغتة، فيمتلئ قبره حسرات مع العذابات.

قال **يحيى بن معاذ**:

---

(٢٤٨) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة :١٩٠٦ وصحيح الجامع رقم:٣٧٤٩.
(٢٤٩) قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص ٣٦- ط دار ابن حزم.
(٢٥٠) الآداب الشرعية ١/ ١٣٨.

(لا يزال العبد مقرونًا بالتواني مادام مقيما على وعد الأماني)[٢٥١] .

توانٍ وكسل.. وتفريط في العمل .. هذه هي النتيجة الطبيعية للتسويف وطول الأمل!

والمرءُ مرتهن بسوفَ وليتني ... وهلاكُه في السَّوْف واللَّيْت

مَن كانت الأيام تسير به ... فكأنه قد حلَّ بالموت

لله درُّ فتىً تدبَّر أمره ... فغدا وراح مُبادرَ الفوت

ولذا أوصاك الحسن البصري:

(يا ابن آدم إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغد)[٢٥٢] .

وقد حذَّر بعضهم بعضا من هذه الخدعة الشيطانية الماكرة، فلما قيل لرجل من عبد القيس: أوصني. قال:

(احذروا سوف)[٢٥٣] .

حتى قال السَّرِى السَّقطي:

(من استعمل التسويف طالت حسرته يوم القيامة)[٢٥٤] .

وقد شبَّهها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تشبيها لطيفا، فقال:

(هذا المرء، وهذه الحُتوف حوله شوارع إليه، والهِرمُ وراء الحتوف، والأملُ وراء الهرم، فهو يأمل، وهذه الحتوف شوارع إليه، فأيها أُمِرَ به أخذه، فإن أخطأته الحتوفُ قتله الهرم، وهو ينظر إلى الأمل)[٢٥٥] .

(٢٥١) الزهد ١/ ٢٣١.
(٢٥٢) قصر الأمل ص: ١٤٤.
(٢٥٣) قصر الأمل ص: ١٤٤.
(٢٥٤) حلية الأولياء ١٠/ ١٢٢.
(٢٥٥) قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص: ٣٣.

عمرك الحقيقي!

احسب عمرك الحقيقي، وهل العمر الحقيقي إلا ربحُ ثواب وتحصيلُ أجر!

قال ابن عيينة:

كان يُقال:

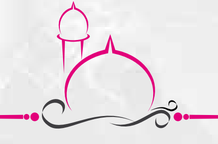
(إنما لك من عُمرِك ما أطعتَ الله فيه، فأما ما عصيتَه فيه فلا تعُدَّه لك عُمْرا)[٢٥٦] .

ومن حِيَل الشيطان أن يدلِّس على العبد ليغريه ببضاعته الخبيثة، فيبيع له الغرور والعجز على أنها لون من ألوان الثقة بالله، مع الفارق الكبير بينهما. قال ابن القيم:

(الفرق بينها: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها كغارس الشّجرة وباذر الأرض، والمغترّ العاجز قد فرّط فيما أمر به، وزعم أنّه واثق بالله، والثّقة إنّما تصحّ بعد بذل المجهود)[٢٥٧] .

فيا أسير فخ الأماني وما نال من الحَبِّ شيئا!

اقطع ما بينك وبين الشيطان من حبال التسويف تصِل!



(٢٥٦) الزهد الكبير ١/ ٢٤١.
(٢٥٧) مدارج السالكين ٢/ ١٢٩.



الأسلحة المضادة!

١. ذكر موت الفجأة!

وأما موت الفجأة فكثير، فمنه السكتة القلبية، والجلطة الدموية، وما ينشأ عن حوادث السيارات؛ والتي تبلغ في مصر مثلا ما يزيد على العشرة آلاف قتيل سنويا، وسقوط الطائرة والانفجارات، فكل هذه يصدق عليها موت الفجأة.

يُعمَّرُ واحدٌ فيَغُرُّ ألفا ... وينسى من يموت من الشباب

فتذهب نفسه فلتة ولو كان صحيح البدن في أعلى درجات العافية..

أنشد أبو عبد الله أحمد بن أيوب رابطا بين قصر الأمل وحُسن العمل:

اغتنم في الفراغ فضل ركـــوع ... فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيحٍ رأيت من غير سقم ... ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

وفي أمثلة العوام:

أخبار مريضكم؟ قالوا: سليمنا مات!

إشارة إلى أن الموت قد يضرب بسياطه السليم بغتة ويترك السقيم الذي ينتظر الموت!

فيا صاحب الكسل ..

أما لك في نوبة نشاط!

قبل أن تذوق في النار ألم السياط.

٢. كتابة الوصية

وكتابة الوصية طعنة في قلب الشيطان، فهي خطوة استعداد عملية للموت وما بعده، وربط بين الدنيا والآخرة في عقد مكتوب، ولذا أمر بها النبي ﷺ:

«ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» [٢٥٨] .

وإلا أصبح حال الكثيرين كما وصف **محمد بن واسع** لما سُئل:

كيف تجدك؟!

قال:

(قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل) [٢٥٩] .

ألا ما أقصر أجل المرء إذا ما قيس بأمله!

وما أسوأ عمله في جنب ما الله به صَنَعه..

لسان حاله:

أضْحك سنَّك طولُ الأمل ... ولم يُبْكِ عينك قربُ الأجل

كأنك لم ترَ حيّاً يُساق ... ولم ترَ مَيْتاً على مُغتَسل

٣. حضور الجنائز وزيارة المقابر

وفي حضور الجنائز وزيارة المقابر خنق للتسويف وغرس لقصر الأمل ودحر للاغترار بزخرف الدنيا على حساب الآخرة، ولهذا أوصى الحبيب ﷺ:

(٢٥٨) صحيح: رواه مالك وأحمد والأربعة عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦١٤.
(٢٥٩) المستطرف ١/ ١١٢.

«عودوا المريض واتبعوا الجنازة تذكِّرْكم الآخرة»(٢٦٠) .

وسارت عائشة، رضي الله عنها -وهي أحب الخلق إليه- على الدرب نفسه، فلما جاءها رجل قائلا:

يا أم المؤمنين..إِن بي داء، فهل عندك دواء؟!

قالت: **وما داؤك؟!**

قال: **القسوة.**

قالت:

(بئس الدَّاء داؤك.. عُد المرضى، واشهد الجنَائز، وتوقَّع الموت)(٢٦١) .

ومع ذكر الآخرة يأتي بالضرورة إحسان العمل، وانظروا ما فعل عامر بن عبد الله ابن الزبير بن العوام!

كان إذا شهد جنازةً، وقف على القبر فقال:

(ألا أراك ضيِّقا..

ألا أراك دقعا..

ألا أراك مظلما..

لئن سلمتُ لأتأهبن لك أُهْبتك! ».

فأول شيء تراه عيناه من ماله يتقرب به إلى ربه، وإن كان رقيقه لَيتعرَّضون له عند انصرافه من الجنائز ليُعتِقهم!(٢٦٢) .

(٢٦٠) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٤١٩٠. والسلسلة الصحيحة رقم: ١٩٨١

(٢٦١) بستان الواعظين ١/ ١٥٩.

(٢٦٢) المقلق لابن الجوزي ص: ٤٣ - ط دار الصحابة للتراث بطنطا.

وكما أن لقصر الأمل أثر على عمل الجوارح، فكذلك يكون عظيم أثره على عمل القلب، فيغرس فيه الرضا والتسليم.

قال **مالك بن مِغوَل**:

(يُقالُ: مَن قَصر أملُه هان عليه عيشه) [٢٦٣] .

لا يبالي بضيق الرزق أو سعته.. أمر الحياة لديه أقصر من هذا!

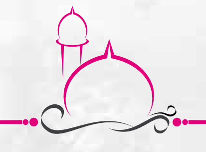
أما حال غير **عامرٍ ومالك** عند المقبرة، فذرف دموع التماسيح..

وبعد الانصراف: ذهاب روح الموعظة مع الريح!

صدق فيهم قول القائل:

نُراعُ إذا الجـــنائز قابلتنا ... ونسْكن حين تخفى ذاهبات

كرَوْعة ثُلَّة لظهور ذئب ... فلما غاب عـــادت راتعات



(٢٦٣) قصر الأمل ٤٤/ ٤٥.



سياط موعظة!

يا غافلاً عن نفسه!

أمرك عجيب..

يا قتيل الهوى!

داؤك غريب.

يا طويل الأمل ..

ستُدعى فجأة وتُجيب.

وتُقبَض غفلة فتفيق!

وليس هذا منك ببعيد.

فكل آتٍ قريب.

فهلا تذكَّرت لحدك،

كيف تبيت فيه وحدك،

ويلمس التُّرب خدَّك،

وتغزو الديدان جلدك،

ويضحك من بكى عليك بَعْدَك،

ويُنسى في غمرة الأحداث بُعدَك؟!

فأهلك مُذْ تمتعوا بالميراث نسوك..

ولو ذكَروك ما نفعوك ولا أنقذوك!

فالأمر جِدٌّ لا هزل فيه،

فاخرج أنت من هزلك الذي لا جِدَّ فيه!



المكيدة السابعة
الرجاء الكاذب

الرجاء الكاذب..وهم من الأوهام وتعلق بالأحلام!

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] .

وقوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ أي يعملون بالمعاصي .

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾: وهم لا يتوبون.

ودلَّ على أنهم لا يتوبون قولــه تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ والعرض: متاع الدنيا، والمقصود به ذنبٌ آخر يعملون به، والإشارة في الآية إلى الرشوة والمكاسب الخبيثة.

ثم ذمَّهم باغترارهم في قولهم : ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ .

وأنهم بحال إذا سنحت لهم الفرصة ارتكبوا الذنب ثانية، فباغترارهم بالمغفرة وقعوا في الإصرار.

وقد رأى السُّديّ أن الآية نزلت في قضاة بني إسرائيل فقال:

(كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلَّا ارتشى في الحكم، فإذا قيل له، يقول: سيُغفَر لي)[٢٦٤] .

والرجاء الكاذب هو كما ترى تعويل على رحمة الله من غير سعي ولا بذل، وكثيرا ما يكون تمهيدا للإقبال على الذنب مع إيهام النفس بالمغفرة، ولهذا ذمَّ أبو حامد الغزالي فقهاء السوء الذين دفعوا الناس إلى الاغترار برحمة الله، فقال:

(٢٦٤) الدر المنثور ٣/ ٥٩٤- جلال الدين السيوطي - دار الفكر - بيروت.



(ويجرُّون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء، فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصى)(٢٦٥) .

هذا أعور يبصر بعين واحدة..

عيناه على الرجاء دون الخوف..

على الرحمة دون العقوبة..

على الجنة دون النار..

لذا يضطرب سيره كالأعرج!

وهو السير المعوج الذي لمحه **معاذ بن جبل** رضي الله عنه فقال:

(أعمالهم طمعٌ لا يخالطه خوف، إن قصَّروا قالوا سنبلغ، وإن أساءوا قالوا سيُغْفَر لنا، إنا لا نُشرِك بالله شيئا)(٢٦٦) .

ما هذا المغرور الذي غرَّه الشيطان؟! (يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه، ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها؛ كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبِّح الله في اليوم مائة مرة، ثم يغتاب المسلمين، ويمزِّق أعراضهم، ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد تسبيحاته، وأنه استغفر الله مائة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة ، فهذا أبدا يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين، وذلك محض الغرور)(٢٦٧) .

---

(٢٦٥) أصناف المغرورين ١/ ٤٦- أبو حامد الغزالي- مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة .
(٢٦٦) سنن الدارمي: ٣٣٨٩ ط دار المغني للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية.
(٢٦٧) الإحياء: ٣/ ٣٨٧ (بتصرف).

ولهذا وضع شاه الكرماني علامة فارقة بين الرجاء المفيد والرجاء الضار:

(علامة صحة الرَّجاء : حسن الطاعة) [٢٦٨] .

الرجاء النافع!

وهو في إحدى حالتين:

الأولى:

في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: وأنى تُقبَل توبتك، فيُقنِّطه من رحمة الله، فيجب عند هذا أن يقمع شيطانه بالرجاء، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده.

الثانية:

أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، فيكون رجاءه في النعيم، وما وعد الله به الصالحين مثيرًا لعزمه، فيقبل على فضائل الأعمال.

فالرجاء الأول يحارب القنوط الحائل دون التوبة، والرجاء الثاني يحارب الفتور الحائل دون النشاط والتشمير.

والتوازن المفقود أوصى به يحيى بن معاذ، فقال:

(من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرِق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادِّكار) [٢٦٩] .

(٢٦٨) مدارج السالكين ٢/ ٣٧ .
(٢٦٩) الإحياء ٤/١٦٦.



راية بيضاء!

في غارة الشيطان على دولة القلب.

سلَّط عليها سلطان الطبع والعادة ليقهر سلطان الإيمان،

فكان له ما أراد!

أسرَ الفؤاد وسجنه إن لم يكن قد أهلكه،

وتولى إبليس بنفسه حكم مملكة القلب،

ونشر فيها جند الشهوات.

ورمى قلاعها الحصينة بمنجنيق الأهواء مستهدفا نقاط ضعفها:

طول الأمل..

وحب العاجلة..

واستبطاء الوعد..

ثم أغلق بوَّابة اليقظة..

وأقام في الحراسة على هذه البوابة بوَّاب الغفلة.

وقال: إياك أن نؤتى من قِبَلِك.

واتخَذَ حاجب الهوى قائلا له:

إياك أن تمكِّن أحدا من الدخول عليَّ إلا معك.

فقيام مملكتنا قد صار إليكما.

فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الهوى:

ليلزم كلُّ منكما ثغره.

فإنكما إن علوتما نُصِرتما ونُصِرنا جميعا.

وإن غفلتما هلكتما وأهلكتما.

وصلح أمر القلب الذي غزوناه.

وانتصر بعد هزيمة.

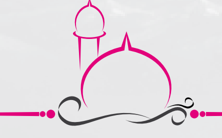
وعزَّ بعد ذُلٍّ.

وعادت الدولة لحظيرة التقوى.

وسامَنا سلطان الإيمان ألوان القهر وعاد للانتقام.

فلا نعود نقرب هذه القلعة بعد اليوم!

نستسلم!







الفهــــرس



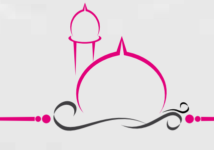
الفهرس

الفصل الأول: أهداف الكتاب!

الفصل الثاني: معالم المعركة

الفصل الثالث: اعرف عدوك!!

الفصل الرابع: مكائد الشيطان





دار الراية للنشر والتوزيع



د. خالد أبو شادي